
يوسف السباعى
من حياتى

مِنْ حياتي

يوسف السباعي

الطبعــة الأولى ـ سبتمبر ١٩٥٨

يوسف السباعي

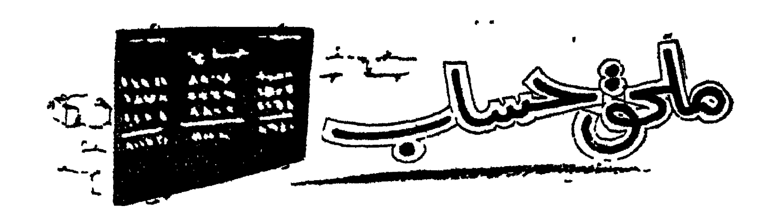
من حياتي



مقدمة

ان حياة الكاتب ليست ملكا خاصا به..
بل هى ملك مشاع بين القراء .. ولا يمكن
حجبها عنهم . وهم ان لم يلتقطوها متناثرة
فى كتاباته .. قدمها اليهم النقاد مكسوة
فى تراجمه .. وأنا هنا أقدم لكم قطعا من
حياتى أقتطعها كما هى وألقى بها اليكم عارية
مجردة .. لا أثر فيها لخيال قاص أو ابتكار
مؤلف .. وبيدى لا بيد عمرو .

يوسف السباعى



هل الله موجود بالطريقة الواقعية البسيطة الساذجة .. التى يتخيلها الأطفال ؟

هل هو جالس فوقنا يطل علينا من سمائه ويرقب حركاتنا من عليـــائه ؟

هل هو ينصت الينا .. ويستمع لدعواتنا .. ويحقق رجاءنا ؟

هل هو كائن حيث نتطلع اليه فى صلواتنا .. بعيون مسبلة وأصوات هامسة مبتهلة .. وقلوب خافقة واجفة .. وهو .. بقدرته وعظمته .. ورحمته .. جالس على عرشه .. بعين نافذة وأذن واعية .. ونفس مستعدة ملبية ..

لا عمل له الا عون المحتاج .. وغوث الملهوف ؟

هل هو كما نتخيله ونوده .. فى أمراضنا .. وأزماتنا ؟.. مُنتظر .. جاهز .. ملب .. كأنه مركز اسعاف .. أو بوليس نجدة ..

طافت بذهنى كل هذه الأسئلة .. عندما شاهدت صبيا صغيرا ..

وضع الطربوش على رأسه .. وانهمك فى الركوع والسجود .. وأخذ يهتف بحرارة ويدعو بالحاح واصرار .. كأنما يستحث الله .. أو يتعجله أو يؤكد عليه .. لكيلا ينسى ..

ربما كان يريد منه .. أن يهدى أبويه لكى يذهبا به الى السينما .. أو يمنحاه بضعةقروش لاستئجار عجلة .. أو ربما كانت المسألة أخطر من هذا .. ربما كان لديه ملحق ..

أنا شخصيا .. مررت بمثل أزمته .. وركعت ركعاته .. وسجدت سجداته .. وهتفت بأحر من دعواته .. ورجوت الله بأشد وألح من رجائه ..

كنت فى أشد الحاجة الى الله .. ولم يكن أمامى غيره .. كان الوقت ضيقا .. ولم يكن سواه يستطيع أن يفعل شيئا ..

كان لدى ملحق حساب فى الابتدائية ..

وقد وقعت الواقعة .. فى عام ١٩٢٨ .. وأنا فى الحادية عشرة وكنت قد رسبت فى امتحان الابتدائية .. وأحدث رسوبى ضجة سخط وحزن فى العائلة .. عدا أبى طبعا الذى لم يأبه قط لنجاح لى أو سقوط لا لأنه لا يأبه لى .. بل لأنه لا يعتبر الشهادات ولا يهتم بالمدارس وما يتبعها من مذاكرة وسقوط ونجاح .. وقد كتب عنه المازنى يصف تقديره للشهادات بقوله :

« ومن مظاهر استخفافه بما يعتز به الناس وان كان غير ذى قيمة

فى ذاته أنه ترك دبلومه التى تخرج بها فى مدرسة المعلمين العليا عند صاحب — قهوة الحقوق — بحى عابدين وهو رجل رومى كنا نألف مقهاه ، ويكثر اختلافنا اليه ، ولا أعلم هل ضاعت أو لم تضع ، ولكن الذى أعلمه هو أن هذا المكان كان مبلغ احتفاله بهذه الدبلوم التى لعل غيره يعلق مثلها فى داره فى اطار من فضة أو ذهب » .

ذلك كان تقدير أبى للشهادات ولكن بقية أهل البيت لم يكونوا فلاسفة كأبى .. فأحدث سقوطى شبه مناحة .. ولم يخفف نجاح أخى محمود .. من وقع الصدمة .. فقد كانت الابتدائية شهادة .. وكان سقوطى وقتذاك .. يعتبر ضياع شهادة .. من البيت ..

وعندما اتضح أن لى ملحقا فى الحساب .. بدا الملحق كطوق النجاة .. وبدأت جهود العائلة (أعنى أمى وخالى فقد كان أبى خارج الحلقة فى كل ما يختص بالشئون المدرسية التافهة فى نظره) أقول بدأت جهود العائلة تحشد فى سبيل انقاذ الشهادة الضائعة . وكان على أن أدرس ليل نهار .. دراسة كان يمكن أن تتيح لى الحصول على دكتوراه فى الاقتصاد .. وليس مجرد المرور فى ملحق حساب فى الابتدائية ..

التحقت فى الصباح بمدرسة وادى النيل الابتدائية الأهلية .. وكانت تفتح أبوابها للدراسة الصيفية لأهل الملاحق الخيب من أمثـــالى ..

أما بعـد الظهر ، فكنت أقضيه فى درس خصوصى عنـد رياض أفندى مدرس الرياضة والأخ الأكبر لصديقى حبشى زميلى فى مدرسة محمد على الابتدائية وجارى الدائم فى فصولها .

وكنا نقطن وقتذاك فى جنينة ناميش فى بيت يطل على محطة سكة حديد حلوان وعلى شارع الخليج وكبرى المنيرة وكانت مدرسة وادى النيل كائنة فى ميدان السيدة .. أما بيت حبشى أو المقـر الدائم للدرس الخصـوصى ، فكان فى آخـر شارع زين العابدين حيث يطل على أماين الجير . وجبل الجيوشى ..

أما عن الدراسة فى مدرسة وادى النيل .. فقد كان وقتنا خلالها ضائعا فى كل شىء .. الا دروس الحساب ..

كانت العملية الكبرى التى تشغلنا فى المدرسة .. هى اسقاط أكبر قدر من البلح النينى الأخضر من ثلاث نخلات فى حـوش المدرسة . فاذا ما أتممناها بنجاح كان علينا أن نذهب الى كنتين المدرسة لأكل ما تيسر من الطعمية .. ثم التجوال فى فصول المدرسة الخالية .. والصعود على السطوح لنشرف على حركة المرور فى ميدان السيدة .

وكان المدرسون من أندر العناصر فى المدرسة .. وبينما كان الفراشون يظهرون بوفره .. وكان الضابط .. والوكيل يتناوبان رياسة المدرسة .. أما الناظر فكنا نلمحه أحيانا .. وكان يسألنا :

ـ مبسوطين ياولاد ..

وكنا نجيبه دائما — مبسوطين يا بيه .

ولم يحاول بالطبع أن يسأل عن سر انبساطنا.. أهو خلو المدرسة من المدرسين .. أم الثلاث نخلات .. أم طعمية الكنتين .

وعندما كنا نضيق بالمدرسة .. ونملأ بطوننا بلحا وطعمية .. وننتهى من كل أنواع العبث بها .. ونسكب الحبر من جميع الدويان ونكل من العدو فى السطوح ومن لعب الكرة كنا نلجأ الى جامع السيدة .. حيث نرقب المجاذيب فى الميضة ثم نتوضأ .. ونصلى وندعو الله أن .. يأخذ بيدنا .. ويكلل جهودنا بالنجاح ..

وكنت أحس براحة كبرى وأنا أجلس فى رحبة الجامع الفسيح مستندا الى أحـد أعمدته مسددا ساقى فوق سجاجيده الحمراء السميكة .. متطلعا بعينى .. الى فراغه العريض وسقفه المرتفع .. متخيلا الله مطلا على من مكان ما فى هذا السقف .. وأنه سيتولى عنى مهمة الملحق .. وأنه لا شك قد أجرى اللازم مع رسله .. وأوليائه .. وعلى رأسهم السيدة زينب .. لانجاحى فى الامتحان ..

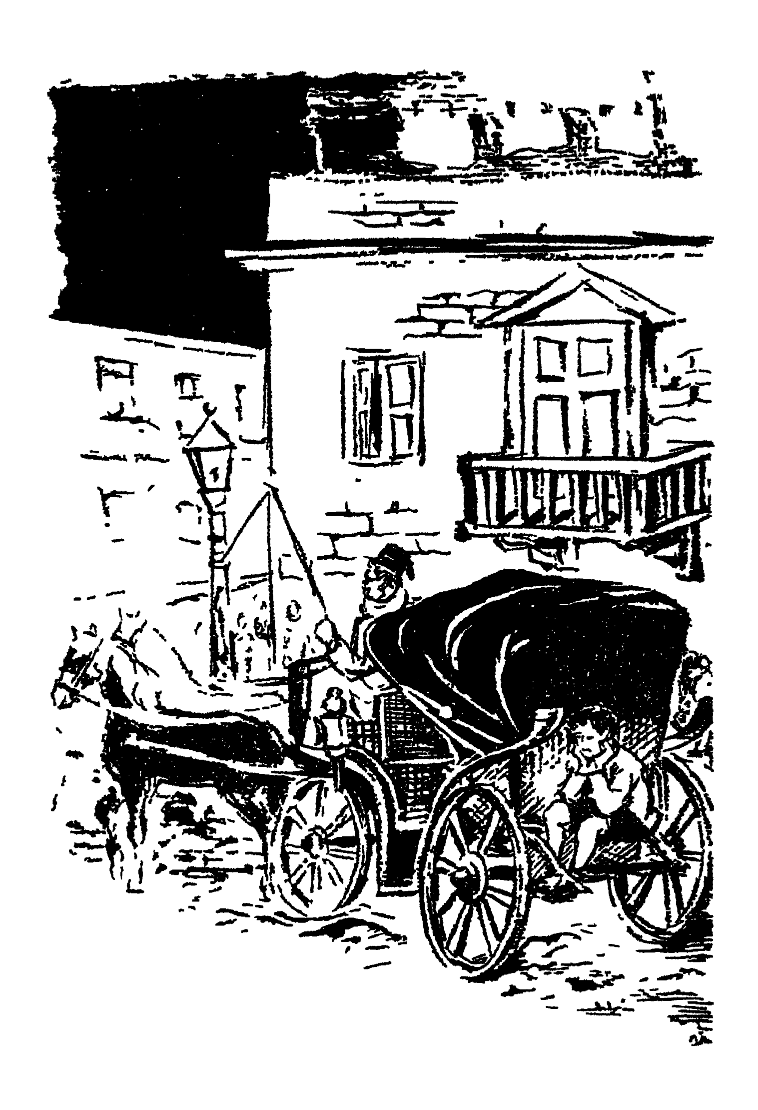
تلك كانت دراستى الصباحية .. أما دراسة بعد الظهر فكنت أبدأها بانتظار أول عربة حنطور .. تحملنى — وراءها بالطبع — الى مقر دراستى .. ببيت صديقى حبشى .. على سفح جبل الجيوشى ..

وعند أول كرباج .. على ظهر الراكب طبعا .. وليس على ظهر الحصان .. أو عندما تنحرف العربة عن الطريق الى البيت .. أقفز منها .. لأقطع بقية رحلتى الدراسية سيرا على الأقدام ..

وعندما أصل الى الدار .. كنت غالبا لا أجد المدرس .. فقد كان — مساه الله بالخير — فى ندرة مدرسى وادى النيل .. من المتعذر لقاؤهم .. وفى الأوقات النادرة التى أجده .. كان يوشك أن يغادر البيت فينبئنى أنه قد ترك لى الواجب .. ويسألنى السؤال التقليدى الذى كان يسأله ايانا ناظر المدرسة . هل أنا مبسوط .. وبالطبع أجيبه بأنى مبسوط .. فيهبط بقية الدرج دون أن يسألنى عن سر انبساطى . ودون أن يعرف أن جزءا كبيرا من هذا الانبساط مرجعه الى قله لقائه .. والجزء الباقى من الانبساط مرجعه الى أنه لا يحاسبنى على الواجبات التى لا أفعل منها شيئا ..

وأدخل الى الدار لأجد فى استقبالى دائما .. نائبه .. حبشى .. صديقى العزيز ممسكا بعصا طويلة .. كنا نستعملها مدقا ندق به الأرض .. أو بتعبير أدق .. مجسا .. نجس به الكنوز المخبوءة فى بطن جبل الجيوشى .

وأقذف بكتاب الحساب وبكراريس الواجبات على طول ذراعى . ثم أتأبط ذراع صديقى .. ونائب مدرسى .. لنبدأ



رحلتنا اليومية فى البحث عن كنوز جبل الجيوشى .. وقد أمسكنا بالمجس .. أو بعصا .. موسى ..

وتقضى الساعات نطوف بالجبل .. هابطين صاعدين وفى كل خطوة ندق بالعصا على الأرض بضع دقات علنا نسمع صدى .. ينبئنا عن تجويف فى باطن الأرض .. وضع فيه الكنز ..

ولست أدرى ما الذى دفعنا الى الاعتقاد بأن هناك كنزا مخبوءا فى باطن الجبل .. ولكن الذى أذكره أننا كنا نعرف أن هناك بقايا مدينة غابرة عفا الزمن على طللها وغطت الأتربة أنقاضها .. وبدأنا بهذه المعرفة سلسلة من الاستنتاجات المنطقية . المدينة لابد أن يكون بها ناس .. والناس لا بد أن يكون لديهم مال .. والمال لا بد أن يكون مخبوءا فى الدور .. والدور مدفونة تحت الأنقاض .. فلو عثرنا اذا على بيت من هذه البيوت .. فلابد أن نجد المال .. واذا وجدنا المال .. اغتنينا .. واذا اغتنينا .. لم يكن بنا حاجة الى التوظف .. واذا لم يكن بنا حاجة الى التوظف .. فليس بنا حاجة الى المدرسة .. وبالتالى .. الى المذاكرة والى ملحق الحساب .. وهكذا أقنعت نفسى ببساطة .. أنى لا أعبث بهذه الرحلات .. بل أسير فى نفس الطريق والى نفس الغرض الذى يمكن أن يؤدى اليه نجاحى فى ملحق الحساب .. وانى — اذا قدر الله لى الحصول على الكنز وليس ذلك عليه ببعيد بعد قضائى ربع يومى فى بيته

متعبدا الى جوار أوليائه — فانى سأصبح من أصحاب الملايين .. وأستطيع بمنتهى البساطة أن أفتح عشر مدارس .. كمدرسة وادى النيل .. وأملأ فناءها بلحا .. وكنتيناتها طعمية ..

وأذكر أننا أوشكنا فى النهاية على اكتشاف الكنز ، فقد سمعنا ذات يوم لضربات عصانا صدىً .. ينبىء عن تجويف فى باطن الأرض (اتضح فيما بعد أنه جامع بعد أن كشفت عنه مصلحة الآثار) ولم نشك فى أنه الكنز المفقود .. ولم يوقف استمرارنا فى الكشف عنه .. الا حلول موعد الامتحان .. وتوقف رحلاتى الدراسية .

ودخلت الامتحان .. وخرجت منه بعد أن لخبطت ما شاء الله لى اللخبطة .. وكان الامتحان مليئا بمسائل الحنفيات والبالوعات التى لم أكن أكره وقتذاك سواها .. والتى جعلتنى حتى الآن أضيق بمناظر الحنفيات والأحواض والبالوعات .

وكان خالى قد أوصانى بأن أكتب أجوبة المسائل على ورقة الأسئلة حتى يطمئن على نجاحى ..

وكتبت الاجابات .. ثم ذهبت الى مدرسى ..

فراجعها وكتب لى الاجابات الصحيحة .. ولم يكن هناك أية صلة أو شبه صلة بينها وبين اجاباتى .

وفى الطريق قطعت اجاباتى واجابات المدرسة من هامش الورقة

وعندما عدت الى البيت أنبأتهم أن اجاباتى صحيحة كلها ،، ولكى أسبك الكذب استثنيت مسألة واحدة هى التى أخطأت فيها وهى مسألة البالوعات .

وعندما سألونى عن سبب تمزيق ورقة الأسئلة أنبأتهم أنى تسليت بقرضها أثناء عودتى .

ومرت بضعة أسابيع ثم قرب وقت اعلان النتيجة .. وفى يوم أغبر .. قيل ان النتيجة قد أوشكت على الظهور وأنها ستعلن فى الصحف قبل العصر .

وكان لى صديق حميم يزاملنى فى الملحق ويشاركنى الدراسة الصيفية فى مدرسة وادى النيل.. وفى التعبد فى جامع السيدة ولست أذكر الآن اسمه الأصلى واذ كنا قد تعودنا أن نسميه بأبى جبل .

وكنت فد أوصيته اذا استطاع معرفة النتيجة قبلى وكنت ناجحا أن يمر بى لينبئنى بها .

وفى ظهر ذلك اليوم سمعت ضجيجا فى حوش البيت . وأطللت من بئر السلم فاذا بصاحبى ينادى على ، قائلا :

— النتيجة ظهرت .

— وعملت ايه .

— أنا نجحت .

— طب وأنا .

— أنت سقطت .

وهكذا بمنتهى البساطة ألقى القنبلة .. وانطلق .

وسمع أهل البيت بالنبأ فبدأت المناحة .. وبدأت جميع صفات الخيابة تنهاوى على رأسى .

وأحسست بحزن شديد .. وسرت الى حجرة صغيرة كنا نستذكر بها .. وجلست واجما يائسا .. ولكن لم يطل بى الجلوس الا لحظات .. ثم تذكرت الله .. فغدوت الى الحمام وتوضأت .. ثم أغلقت على باب الحجرة وبدأت الصلاة ..

لست أدرى .. ما الذى دفعنى اليها . وماذا كنت آمل فيها بعد أن عرفت النتيجة وأيقنت من سقوطى .

ومع ذلك اندفعت فى الصلاة بحرارة .. لم تكن صلاة .. بالطريقة التى تعودنا بها أن نؤدى الصلاة .. كانت توسلا.. كانت رجاء الى الله الذى كنت واثقا أنه يطل على ويسمع دعائى .. ويفهم شعورى .. ويقبل ندمى ويقدر توبتى ، ويستطيع أن يحقق رجائى ، وألا يخذلنى أمام الأهل .

ومكثت أصلى فى اصرار وأدعو فى الحاح ..

لا ركعة ولا ركعتين .. بل صلاة مستمرة .. حتى سمعت بائع الصحف ينادى .. بصوته المنــذر (نسر التلامذة .. الابتدائية)

ولم أتحرك من مكانى .. ولم أقفز ولم أعد الى البائع .. بل ظللت فى ركوعى وسجودى .. ودعائى .. وتوسلى الى الله .

وفجأة فتح الباب ووجدت أخىمحمود يندفع الى كالصاروخ صائحا :

— يوسف .. انت نجحت .

ولم أصدق .. وأمسكت بالصحيفة لأقرأ الأرقام من خلال دموعى فوجدت رقمى .. وعدت لأقرأه مرة ثانية وثالثة والتأكد من اسم المدرسة .. مدرسة محمد على الابتدائية .

وتركت جسدى يسترخى .. وأعصابى المشدودة تستسلم .. ونظرت الى أعلى .. وأنا أحس بشكر فائض .. وحمد عجيب .. لقد بدا لى الله :. وكأنه يبتسم فى رضاء .. ويقول لى « مبسوط يا عم .. أديك نجحت .. بطل لعب بقى » .

تلك هى المرة التى أحسست فيها الله قد سمعنى وأجاب على اجابة مباشرة .

لقد دعوته بعد ذلك كثيرا .. فكان يجيبنى اجابة بطريقة غير مباشرة .. أو بطريقة « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » .

وكنت أحمده .. حمدا مباشرا أحيانا .. وحمدا بطريقة « الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه » أحيانا أخرى ..

وبعد .. أنا أومن بأنه دائما موجود وانه دائما يلبى دعواتنا ولكن بطريقته الخاصة .



لا تزال كلمة « دفعة » فى قاموس الجيش تعنى عزيزا .. فالدفعة هم الذين يدخلون الجيش فى دفعة واحدة سـواء كانوا جنودا أم ضباطا . ومعزة الدفعة ناتجة من فرط الصحبة وطول العشرة .. وقد تضرب أيدى الزمن بين الدفعة وقد تباعد الظروف بين أحدهما والآخر فيفترقان ولا يلتقيان الا وقد اشتعل الرأس شيبا . ومع ذلك لا يكاد أحدهما يلقى صاحبه حتى تتهلل منه الأسارير وتنفرج الشفاه وتنبسط الملامح ويهتف كل منهما « أهلا .. ازيك يا دفعة » .

عندما أجلس الآن لأذكر الدفعة وأعود بذهنى القهقرى لسنين خلت وأعود لأطوف بالكلية متسللا وبنفسى كثير من خشية ورهبة لا أظنها الا ملازمة ذكريات كل من مر بالكلية الحربية .

عندما أجلس لأذكر الدفعة . أرانا قد وقفنا فى « الجرة » (والجرة عند من لا يعرف هى الطرقة الممتدة أمام عنابر النوم)

وقد بدا منظرنا لا يسر الناظرين . برؤوسنا الحليقة التى جارت عليها ماكينة الأسطى خير فأودت بالأخضر واليابس . وتركتها ملساء من غير سوء كأنها الزلطةأو قرعة البوظة . وقد ارتدينا لبس الألعاب المكون من قميص أبيض بدون ياقة . وحتى الآن « وبعد أن حصلت على شهادة الأركان حرب » لم أستطع أن أفهم السر فى اصرار المهمات على تفصيله بلا ياقة .. وأسفل القميص يستند على عجزنا بنطلون ترواكار وفى يدنا قايش الوسط المفروض انه يرفع البنطلون ولكنه كان من فرط سعته فى حاجة الى من يرفعه فرفعناه بأيدينا ، وأسفل هذا شراب من الصوف البنى الخشن ثم حذاء عريض البوز منبسط النعل من القماش الأبيض المرصع بالجلد.

وكان حريا بنا ان نشعر بخيبة أمل كبرى .. ونحن نرى الصورة الرائعة ذات الشريط الأحمر التى اظهرتنا كطلبة الأحداثأو ملاجىء اليتامى .

أقول انه كان حريا بنا أن نشعر بخيبة أمل .. ومع ذلك فاننا لم نشعر بها .. لأن سلسلة الأحداث التى توالت علينا .. لم تدع لنا الفرص لأن نشعر بشىء .. لا أمل .. ولا خيبة أمل .

حلق الرأس ثم الاصطفاف أمام البلوكامين حافظ أو موسى لست أذكر ثم لفع كيس المرتبة المليء بالمهمات فوق أكتافنا وحمله الى العنبر ثم ارتداء الملابس الوجيهة التى آبدتنا كالطير المنتوف

الريش . ثم السير الى الحمامات ولبسنا زوجا من الأحذية ذات الرقبة الطويلة والنعل الحديدى التى تركتها المهمات بلا صباغة ولا لون حتى تتكفل نحن بصبغها . وبيسارنا حق من الورنيش به حوالى أربعة أرطال ورنيش أسود لا يلمع الحذاء الا اذا بصقنا عليها وعليه .

كل هذه الضجة .. لم تترك لنا فرصة للتفكير .. فقد أخذنا كما يقول المثل على (مشمنا) ومن ورائنا الصف ضباط يمارسون فينا صنوف الادارة وضروب « التريقة » والامارة ويردون الينا الأسى الذى حملوه من سابقيهم كأنه نذر لابد أن يوفيه كل جيل من أمثالهم الصف الضباط للجيل الذى بعده من أمثالنا المستجدين .

وهكذا أخذت تمر بنا اللحظات والساعات والأيام .. ونحن من فرط تعبنا أشبه بالدائرين فى دوامة لا نكاد نحس بشىء مما حولنا أو أشبه براكب القطار لأول مرة لا يكاد يستقر بصره على منظر حتى يكون قد اختفى .

وعندما أقول اننا كنا من فترتنا الأولى فى الكلية أشبه بالدائرين فى دوامة لا أقولها على سبيل المجاز أو المبالغة لأنى فى الواقع لا أستطيع الآن أن أرسم صورة واضحة لتلك الفترة .. فقد كان كل شىء يمر بنا بسرعة وكنا فى عملنا من فرط الجهد والارهاق قد امتنع علينا فيه التفكير .

صحيان قبل النوبة خوفا من النوبة وعدو من العنبر الى الحمام ثم من الحمــام الى العنبر وحــلاقة فى عجلة ، ثم فرش البطاطين والملايات وطيها وضبط مقاسها ، ثم لف القالشين وفكه ثم لفه مرة أخرى وفكه ثانيــة ، ولفه ثالثة حتى نضبط التــوكة فى مكانها المضبوط بجانب الساق كأن انحرافها من مكانها سيسبب انحراف دورة الفلك وعدو الى الشاى وعدو من الشاى ولبس أول ولبس ثان و .. و .. كل ذلك كأن هناك انسانا قد أمسك من يديك وظل يدور بك بلا توقف حتى يقذف بك آخر اليوم على فراشك وأنت فى شبه اغماء ، ولم أقل فى شبه ؟ وقد كنا نأوى الى الفراش فى التاسعة .. وفى التاسعة والدقيقة نكون فى سبات عميق .

وفى وسط هذه الدوخة بدأت أميز أفراد الدفعة .. أو شركائى فى البأساء ، وكان أول من استطعت تمييزه هو الزميل قره .. اذ كان هناك بعض الشبه بيننا وبدأ هذا الشبه يوقعنى فى مشكلة لا قبل لى بها .. اذ اختلط الشبه على الباشجاويش عبد العليم التعلمجى الذى لم أكن أرى فيــه الا عينــين تبرقان فى منتصفه رأسه وصدغين عريضين لا تفتأ ضروسه تتلاعب من ورائهما علامة الغضب .

كنت فى دوامة الرهبة الأولى .. أخشى كل انسان وكنت أبذل كل جهد حتى لا أخطىء فأجازى . ولذا كنت أقف أو أسير فى

الطابور وأنا أبالغ فى كل ما يطلب منا من ابراز صدر الى رفع هامة الى شد قامة ، ومع ذلك كنت لا أفتأ أسمع صوت الطيب الذكر الباشجاويش عبد العليم ينهرنى بين آونة وأخرى بصوته الأجش صائحا « شد حيلك يا سباعى .. افرد صدرك يا سباعى » الخ .. وهكذا ظللت أشد حيلى وأفرد فى صدرى حتى كدت أوشك على الانفجار وصاحبنا مستمر فى نهره ، وأنا تزداد بى الخشية والرهبة عندما أجد أن رشاشا من اللوم والنهـر قد تبلغ أذنى ضـابطنا الحبروك .. فتسوء سمعتى لديه سماعيا .

وكدت أيأس من الأمر عندما أدركت فجأة ان عبد العليم يخلط بينى وبين قره .. وانه عندما يخطىء قره أنهر أنا لأنى رأيته مرة يلتفت وراءه فيصيح به عبد العليم « بص قدامك يا سباعى » ثم ينظر الى وأنا واقف كالصنم ويقول « كويس قره » .

وهكذا أدركت أنى أتبع الطريق الخاطىء لانقاذ سمعتى وأن كل مجهود بذلك يذهب لحساب قرة . وأن قرة لن يحاول أن يبذل أى مجهود لحسابى ما دام اسمه يتمتع بهذه السمعة الطيبة بلا أى جهد وما دام يخطىء فأنهر أنا . ولم تخطر ببالى بالطبع فكرة أن أنبه الأخ عبد العليم الى خطئه وأن أفهمه أنى لست قرة وأن قرة ليس أنا . فقد وجدت أن هذا ضرب من ضروب العبث فقد كان الكلام فى الطابور جريمة كبرى وبعد الطابور لم يكن لدينا وقت

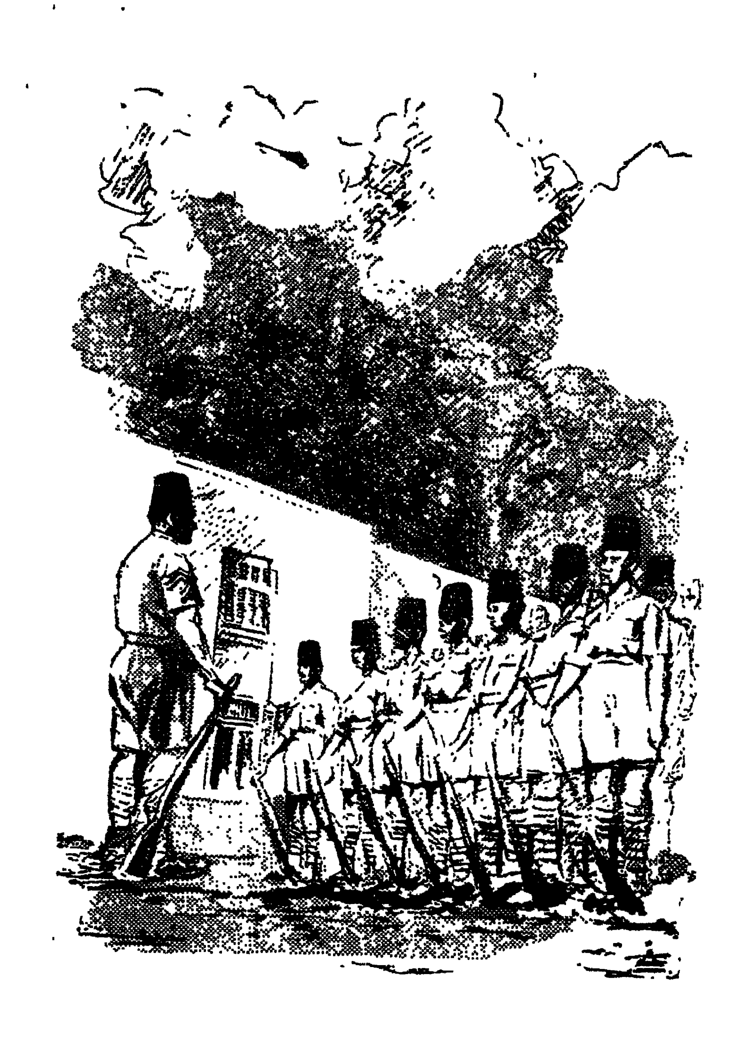
للكلام فقد كنا تنطلق كالفيران المنزعجة لنبدل ملابسنا ولنذهب الى الفصول أو لنفعل أى شيء أو حتى لنفعل لا شيء وانما نجرى لأن المشى أو الوقوف كان يعتبر أمرا منكرا .. وكان لا يجرؤ على الاقدام عليه الا كل مغامر .. ولم أكن فى يوم من الأيام من المغامرين .

ثم هبنى استطعت أن أقدم على محادثة « الغول » عبد العليم وأنى غامرت بافهامه خطأ ظنه . فهل تراه سيتنازل بالاعتراف بالخطأ .. وهل تراه سيعترف أنى أعرف اسمى أكثر منه وهو الذى يحفظ قانون البيادة صم .. لا أظن .

وأخيرا من الله على بالحل السعيد وأؤكد لكم أن الله هو الذى من على به .. لأنى لم أكن أجرؤ قط على التفكير فيه أو الاقدام عليه ان لم يدفع به الله الى بطريق الصدفة .

فى ذات طابور . شرد بى الفكر . ونادى عبد العليم على الطابور لليمن در .. فاستدار الكل لليمين .. واستدرت وحدى لليسار .. وثار عبد العليم وهاج ولعبت ضروسه من وراء أصداغه وبرقت عيناه فى منتصف رأسه .. ثم شتم قرة .

وبلعها قرة .. وعدت أنا الى مكانى فى الطابور بسرعة .. وتلفت يمينى أسترق النظر الى القرة لأرى وقع الأمر عليه .. فصاح بى عبد العليم « بص قدامك قرة .. بلاش مسخرة » ولا شك أن قرة



قد أحس لأول مرة بوقع النهر فشد قامته وأبرز صدره .. وصاح عبد العليم لا فض الله فاه « كويس سباعى » .

وكدت من فرط الفرح لانقلاب الحال .. أن أرفع يدى الى رأسى بالتحية شاكرا وأحييه « دا من أصلك » لولا أنى خفت أن تحل بقرة كارثة .

وأحسست لأول مرة بنشوة الانتصار فى هذا الطابور وكلما استمرأت الخطأ ازداد النهر على قرة وكلما ازداد النهر على قرة ازداد هو نشاطا وحرصا فى الطابور .. وازددت أنا مديحا حتى انتهى الطابور ..

واستمر كل منا بعد ذلك يتحمل مساوىء الآخر وحسناته فى الطابور حتى انتهى تعليم المستجدين وتخلصنا من عبد العليم .

وهكذا كان قرة أول شريك لى فى بأساء الطابور .. أما الشريك الثانى الذى بدأت أميزه فى الدفعة .. فقد كان شريكا فى بأساء الحمام .. أعنى حمام السباحة .

كان طلبة المدرسة وقتذاك لا يتجاوزون الخمسين ، وكانت الألعاب اجبارية ولم يكن معنى هذا ان كل طالب يلعب اللعبة التى يجيدها وأن هناك فرقا رياضية يكونها طلبة المدرسة . بل كان على كل طالب أن يلعب كل لعبة .. سواء أجادها أم لم يجدها .. وسواء أكانت مواهبه وامكانياته تمكنه من ممارسة اللعبة أم لا تمكنه .

كان المفروض على كل طالب أن يلعب الملاكمة وأن يقفز الحواجز وأن يقذف الجلة وينط عال وطويل ويعدو المائة ياردة والميـــل واختراق الضاحية .. التى لا تقل عن أربعة الأميال .. وبعد هذا يعبر الحمام سباحة .. فان لم يعبره .. فهو لن يرى الطريق بعينه حتى يتعلم كيف يعبره .

ولم يكن لى سابق خبرة بأى نوع من الألعاب الا كرة القدم التى كنت أباشرها خلسة وأنا تلميذ فى مدرسة شبرا الثانوية . فقد كانت والدتى تحرم علينا أنا وأخى كل أنواع الرياضة اذ كانت تجد فيها هى وركوب العجل والتجذيف خطورة على حياتنا . وكنت أحتفظ بلبس الكرة عند بواب المدرسة ولا أجرؤ قط على حمله الى البيت ولا سيما بعد أن أصيب أخى الأكبر ذات يوم فى لعب الكرة بجرح فى حاجبه وحضر الى الدار محمولا على عربة اسعاف .

ولم يكن لى بالطبع أى دراية بالسباحة ، بل لا أذكر أنى انغمرت قط تحت مياه غير مياه الدش .. لا حمام سباحة .. ولا نيل ولا حتى ترعة .. اللهم الا مغطس حمام الناصرية الذى أذكر أنى نزلت به مع والدى ذات مرة وأنا فى السادسة من عمرى .

ولم يكن هناك بالطبع شبه كبير بين مغطس الناصرية وحمـــام الحربية ولم تكن خبرتى فى الاستحمام تحت دش تعطينى أى نوع

من مبادىء السباحة . ولذا وجدت نفسى أقف وشركائى فى البأساء وقد أخذنا ننظر الى بعضنا البعض فى حيرة وجزع .

وكان ضابط السباحة هو اليوزباشى على عامر وكان الصف ضابط المسؤول هو الشاذلى . وهو أصدق أصدقائى الآن وألد أعدائى وقتذاك .

كانت طريقة تعليمنا السباحة هى الطريقة العملية المثلى .. ولكنها كانت أيضا الطريقة التى تجعل حمام السباحة شبحا ينغص علينا حياتنا .

كنا نقف على حافة الحمام من الناحية العميقة .. ونحن .. الخمسة أو الستة زملاء التعساء .. نؤمن بالله ونؤمن بقوله تعالى « لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » وكنا بلا جدال لا نجد فى الحمام الا تهلكة كبرى .. ومع ذلك لا يكادالشاذلى ينادى « استعد انزل » حتى نكون قد أطعناه وعصينا الله .. وألقينا بأيدينا الى التهلكة الا واحدا منا .. هو الأخ بدر الدين .. فقد كان لا يلقى بيديه بل برجليه .

وتفصيل الأمر أن بدر الدين شريكى الأول فى بأساء السباحة .. كان أبعد الناس عن كل أنواع الرياضة .. لا كرة ولا جرى .. ولا أى شىء .. وكنا عندما نقفز بأنفسنا فى الماء نحاول أن نبذل جهدا مضنيا .. ونظل نضرب بأيدينا وأرجلنا .. لا فى سبيل العوم ..

بل فى سبيل البقاء على قيد الحياة أطول مدة .. حتى نصل الى منتصف الحمام ونشرف على الغرق فيهبط بعض معلمى الحمام لانقاذنا . كنا نحن نفعل هذا ، أما الأخ بدر الدين فلم يكن لديه أى أمل فى المقاومة .. بل كان ينظر الى المسألة بمنتهى اليأس .. وكان يعتبر نفسه فى كل مرة يلقى بنفسه فى الحمام منتحرا .

كان يقف معنا على حافة الحمام .. وعندما كان ينادى الشاذلى « استعد » لم يكن هو يحاول الاستعداد أبدا .. بالطريقة التى يستعد بها السباحون .. لأنه قطعا لم يكن يعتبر نفسه سباحا بل منتحرا ولذا فقد كان يستعد بطريقته الخاصة .. كان يرفع يده الى رأسه بدا به بشائر صلع . ثم يأخذ فى هرش البقية الباقية من شعره .. وقد بدا عليه أقصى آيات الشرود وأجده قد أخذ يتمتم بشفتيه وأغلب ظنى الآن أنه كان يقرأ الفاتحة أو شيئا من هذا القبيل ..

وعندما ينادى المنادى انزل . لم يكن ينزل كالسباحين هابطا بيديه ورأسه . بل كان بمنتهى البساطة يقدم رجلا ويدبها فى الماء ووراءها الرجل الأخرى . ويهبط فى الماء هبوطا رأسيا كأنه قطعة الحجر أعنى هبوطا لا طلوع بعده .. ولا نعود نبصر من بدرالدين أى أثر اللهم الا بعض فقاقيع الهواء التى تدل على أن صاحبنا يموت غرقا .

ويهبط السباحون وراءه ليبحثــوا عنه فى قاع الحمــام ثم يخرجوه .. ليعود على عامر والشاذلى الى الالقاء به معنا فى قاع الحمام مرة أخرى .

وعندما كان يحل بنا الاعياء . ولا تكاد أقدامنا تحملنا ، كان اليوزباشى يأمر الشاذلى بالانصراف بنا لأننا قد أنهكنا .. فلا نكاد نحس الخلاص حتى نجد الشــاذلى صاح بنا « انصراف ازاى يا فندم . دول ماتعبوش .. دول بيستهبلوا » .

ولم يكن لى فى ذلك الوقت عند الله تعالى سوى أمنيتين .. الأمنية الأولى أن تهب عاصفة رملية مريعة لم تعهدها مصر . لكى تردم حمام السباحة .. والأمنية الثانية أن يكون الشاذلى فى قاع الحمام قبل أن تردمه العاصفة .

والعجب فى صاحبنا أو عدونا الشاذلى .. انه — رغم اعتقادى وقتذاك أنه من أبطال السباحة — كان لا يجيد السباحة . وأنه لم يتعلمها الا وهو فى الكلية . وأنه وهــو مستجد بنفس الدور الذى مر بنا وقد قص على فيما بعد أنه عندما التحق بالمدرسة ودخل حمام السباحة فى أول مرة .. ولندعه يقص القصة بلسانه :

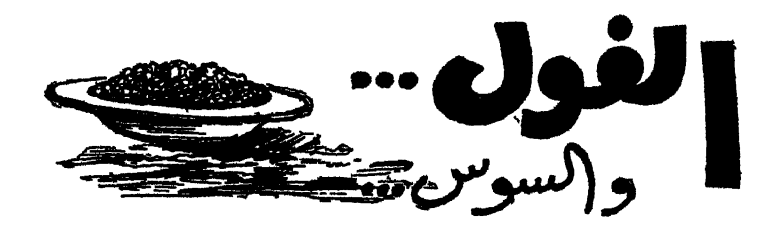
« وقفت فى الحمام .. وكانت المرة الأولى التى أدخل فيها فى حياتى حمام سباحة .. اذا كانت كل صلتى بالمياه هى الترعة الموجودة

فى بلدنا ووجدت بعض الطلبة يسبحون فى الناحية غير الغريقة وقد وقفوا مطمئنين يلعبون . ولم تكن لدى أقل فكرة أن حمامات السباحة مائلة القاع وأنها فى ناحية عميقة وفى الأخرى غير عميقة بل كنت أفهم أنها كالترع مسطحة القاع . ولم تكن لدى أى فكرة عن السباحة . وكان ابراهيم جزارين هو الصف ضابط المسئول عن السباحة يومذاك . ووجدت الناحية العميقة خالية .. فقلت لنفسى أنزل بها بعيدا عن الزيطة . لأرى الحكمدار أنى لست غشيما وأنى متعود على حمامات السباحة .. وعنها وفى غفلة منه ودونا عن بقية الطلبة .. طبيت فى الماء .. بمنتهى البساطة .. ويقول الواقفون يومئذ ان ابراهيم جزارين تلفت حواليه فلم يجدنى فسأل من حوله فى حيرة « الواد الفلاح اللى كان واقف هنا راح فين » فأشاروا له انى طببت فى الماء وصاح جزارين .. يا نهار اسود الله يخرب بيته دا ما يعرفش يعوم .. ثم قفز ورائى .. وأنقذنى من الغرق » .

تلك هى قصة الشاذلى حكمدار السباحة .. الذى كان يشرف على تعليمنا السباحة .. والذى لم يذكر أيامه السود فى حمـــام السباحة .. وكان يصر عندما يوشك على عامر أن يطلق سراحنا .. على أننا لم نتعب بعد وأننا نستهبل .

وهكذا ظل شريكى فى البأساء الأخ بدر الدين يلقى بقدميه

الى التهلكة ثم يهبطون وراءه لانقاذه من الموت غرقا . ولا يكاد يخرج حتى يعيده الشاذلى مرة أخرى ويظل يخرج ليعود ويعود ليخرج .. حتى فضل فى النهاية أن يخرج من المدرسة كلها وأن ينجو بحياته ويفوز من الغنيمة بالاياب ويقدم استقالته .



لم تكن متاعب الكلية فى فترة المستجدين بمقصورة على حالة اليقظة ما بين طوابير ونط حواجز وملاكمة وحمام سباحة وجزاءات من طوابير زيادة الى شدة سفرية ولوم وتأنيب و « بستفة وتريقه » مما يدعونها بلغة الكلية « داخلية » . لم تكن متاعبنا مقصورة على جهد اليقظة بل كانت تتعداها أيضا الى خوف الراحة .. أو على وجه أدق خوف النوم .

ولست أقصد بخوف النوم . نوم الليل .. فقد كان وقتذاك أحب الأشياء الى نفوسنا . اذ كانت فترة السعادة الوحيدة التى تمر بنا .. أعنى السعادة السلبية .. التى يبطل خلالها احساسنا بالحياة وبكل ما يملؤها من متاعب ومنغصات حرة صافية لا تشوبها شائبة متعة أو انشراح .

لست أعنى بخوف النوم .. نوم الليل .. ولـكنى أعنى نوم الضحى .. وقد يبدو قولى نوم الضحى عجبا .. وانا الذى أصف

حياتنا حينذاك بأنها عاصفة من العمل والحركة لا تهدأ ولا تنى.
ونوم الضحى هذا يحتاج الى حالة من الراحة والكسل والفراش الوثير
والستائر الثقيلة والسكون المخيم والصمت المطبق والظلمة المعتمة
ومن أين لنا كل هذا نحن الدائرين فى دوامة تتركنا لا نكاد نلتقط
أنفاسنا . ومع ذلك فقد كان أكثر ما نخشاه نوم الضحى . لسبب
بسيط .. هو أننا لم نكن نحتاج من نوم الضحى أو نوم الدجى
الى أى من هذه المغريات التى تغرى الانسان بالنـــوم . بل كان
يكفى جدا أن نستقر بأجسادنا على مقعد خشبى أو نتكىء على
جدار حجرى . ثم نسبل أعيننا أو حتى نتركها مفتوحة لكى تسقط
من تلقاء نفسها . وفى لمح البصر نكون قد رحنا فى سبات عميق .

وفى الضحى لم يكن القدر ليبخل علينا بسويعات استقرار على
مقعد خشبى فى حجرات الفصول أو كما تسميها « الفرق » .. وكان
المفروض وقتئذ أننا نجلس فى الفصول للدراسة .. دراسة أصول
الحرب وتاريخ المعارك .. ومن الجائز جدا أن المدرسين كانوا يلقون
علينا بعض المعلومات عما يعرفونه عن أمثال هذه الأشياء .. ومن
الجائز أيضا أنهم كانوا يتحدثون فى أشياء لا صلة لها بالمعارك
أو الحرب .. فأنا نفسى لا أدرى .. لأنى فى الواقع كنت مشغولا
عن معاركهم وحروبهم .. بمعركة كبرى .. بينى وبين النوم .

ولكى لا أظلم نفسى .. ولكى لا يظلمنى القـــارىء ويتهمنى

بالكسل والوخم .. أجد أن من الخير أن أعطيه صورة مفصلة وأن أشرح له جميع الظروف المحيطة .. وأن أصف له بدقة كيف كنت أدخل الفصل لأستقر على المقعد الخشبى ولأنصت الى مبادىء الحرب وتواريخ المعارك .. وبعد هذا .. أتحدى كل قارىء بمائة جنيه ، للاشىء .. أن يوجد فى مثل هذه الظروف .. ويستطيع أن يقهر .. النوم .

تبدأ المسألة بيقظة فى الخامسة .. يقظة لا ككل اليقظات .. لا تثاؤب ولا تمطى ولا هرش رأس ولا حك جلد .. ولا فتح عين ثم غلقها ثم فتحها ثانية .. لا شىء من هذا أبدا .. بل هبة كعاصفة مفاجئة بعد طول سكون .. عقب نفخة فى البورى للنوبة المخيفة « نوبة » صحيان .. وطرقات شديدة منأومباشى « الصنف » أى حكمدار العنبر وصيحة ناهرة تشتمل على « اصحى منك له » .

وبعد بضع دقائق نكون قد اصطففنا بالبيجامات والجلاليب والشباشب والطرابيش . لندلى اليه بالقول الخالد المأثور « تمام يا أفندم مستجد » وهو يعنى أننا على خير حال من الصحة والعافية وأنه ما زال بنا رمق يعاوننا على تحمل متاعب يوم جديد .

ويبدأ بعد ذلك العدو بين الفراش والدولاب والحمام والسلاحليك وعلبة الجلا وحق الورنيش وفنجان الشاى الصباحى . حتى ينتهى بنا المطاف الى أرض الطابور .

وما من شك هناك أننا نكون — قبل البدء فى الطابور — قد استنفدنا من الجهد للاستعداد للطابور ما يعادل ان لم يزد على جهد الطابور نفسه .. ويبدأ الطابور .. وفترة المستجدين فى الكلية تستغرق شهر أكتوبر . وحدة القيظ لم تذهب بعد . ويدق الطبل والترمبيت .. ونروح فى ساحة الطابور وكأننا فى سيرك .

ونخرج من الطابور .. والواحد منا كما يقول المثل « عرقه مرقه » .. لندخل على الفطار .

وحديث الفطار . . أو الطعام بوجه عام .. حديث يطول . . ولست أدرى السر فى اقبالنا عليه بتلك اللهفة والنهم .. أهو الجهد الشاق الذى كنا نبذله والذى كان يتركنا فى حالة من الجـوع تجعلنا نلتهم أى طعام ، أم هى حالة من الديمقراطية أصابت معداننا وجعلتها ترحب بكل ما يلقى اليها وتركتها كما يقولون تهضم الزلط أم أن الأكل كان فعلا من نوع جيد .

قد يكون .. ولكى لا نظلم معداتنا أو نظلم الأكل .. يستحسن أن نعرض قائمة الطعام وقتذاك .

كان الطعـام ينقسم من ناحية الصنف الى صنفين رئيسيين لا ثالث لهما . الأول .. الأحمر .. والثانى .. الأخضر ..

كانت كل أنواع الخضار التى تنبتها التربة المصرية .. تدخل

مطبخ الكلية بكيانها المحدود المعروف واسمها المصطلح عليه .. قلقاس . بطاطس . خبيزة : سبانخ . رجلة . ملوخية .. فلا تكاد تحل بالمطبخ وتهبط فى القزانات .. حتى تتفرع الى فرعين .. وحتى تحولها كيمياء مطبخ الكلية الى الصنفين الرئيسيين اللذين يأبى مطبخ الكلية أن يقدم غيرهما .. الأحمر والأخضر .

كان من المتعذر أو من المستحيل .. ونحن نجلس على المنضدة يتوسطها السرفيس مليء بالخضار أن تعرف ماهيته .. أو أن تعرف أصله أو نوعه .. شيء واحد هو الذى يمكن تمييزه وهو أنه أخضر .. أو أحمر .. فاذا كان أخضر تستطيع أن تعتبره أى نوع من أنواع الخضراوات ذات الأوراق الخضر أو ذات التقلية الخضراء المصنوعة من السلق .. جائز جدا .. أن يكون خبيزة .. وجائز جدا أن يكون سبانخ .. وجائز جدا أن يكون رجلة .. فاذا كنت من غواة الملوخية .. فتستطيع أن تعتبره ملوخية .. دون أن يعترضك معترض ودون أن تخشى فى الحق لومة لائم .. واذا كنت تكره كل هذه الأصناف ولا تحب الا القلقاس أبو خضرة .. فلتقل عنه قلقاس .. ولتقبل عليه بشهية وبالهناء والشفاء .

ويدخل تحت باب الأحمر .. كل ما يطهى بالقوطة .. ويبدأ بالقوطة نفسها . والبطاطس والكوسة والمسقعة والقلقاس أبو قوطة لا فارق قط بين أحدهما والآخر .. كلها فى قزان المطبخ سواسية

كأسنان المشط تدخل بأشكالها وأسمائها ، وتخرج عصيدة حمراء تحت اسم الأحمر .. وليحيى العدل .: ولتحيى المساواة .:

أما الحلو .. يا حلو .. فكان ينقسم أيضا الى قسمين .. والظاهر أن المسئولين عن الطعام كانوا لا يحبون اللخبطة .. ولم تكن لديهم أية فكرة عن شيء اسمه الفاكهة . لأن الحلو كان محصورا وقتذاك.. فى صنفى الأراسيا والمشمش . يوم أراسيا .. ويوم مشمش .. وهكذا يظل الصنفان يتبادلان على مائدتنا يوما بعد يوم .

وهناك بعد هذا أصناف من الأكل تدخل كلها تحت مسمى واحد وهو القنابل اليدوية .. وهى الكفتة والكرنب المحشى .. فقد كانت دائما تصنع فى حجم قبضة اليد .. أو فى حجم القنبلة اليدوية .. وفى هذه المسألة أعذر الطباخ جدا .. فقد كان الرجل ضخما جدا يبلغ ضعف حجم الآدمى العادى .. ولا شك أنه كان عندما ينظر الى قطعة الكفتة أو قطعة المحشى أو يمسكها بيده الضخمة كان لا يشعر الا أنها لا تزيد عن الكفتة أو المحشى الطبيعى الذى يأكله كل الناس .

هده هى الأصناف الرئيسية فى الغداء والعشاء .. والتى كنا — رغم ما قلت عنها — نقبل عليها بنهم ولهفة .. والتى لم نشعر مرة واحدة من أكلها بحمو ولا بتعب ولا بحرقان .. ولا بأى شيء من هذه السخافات التى نشكو منها هذه الأيام ..

رحم الله المعدات الديمقراطية .. التى تهضم الزلط .

أما عن الفطار فقد كان أيضا ذا قسمين رئيسيين : عدس .. وفول .. يقدمان بالتبادل يوما بعد يوم . يوم عدس ويوم فول .. والفول فى حد ذاته ينقسم الى قسمين فول وسوس .. ولكنهما لم يقدما قط بالتبادل بل كان كل منهما ملازما للآخر .

أذكر أننا جلسنا مرة على المائدة ومر الأومباشى النوبتجى المسئول عن الأكل وسأل حكمداو كل مائدة عن الطعام ليبدى ملحوظاته ، وكان السؤال سؤالا شكليا والاجابة الطبيعية الدائمة لم تكن تزيد عن « تمام يا افندم » . ولكن فى هذه المرة . والظاهر أن السوس كان متوفر الكمية وأن صحته كانت جيدة الى الحد الذى بدا متكافئا مع الفول . بدا لى أن أبدى رأيى فى مسألة خلط الفول بالسوس فهمست راجيا :

— عايزين الفول لوحده والسوس لوحده .

ونظر الى الأومباشى نظرة صارمة أدركت منها مدى الخطيئة التى تورطت فيها .. وتأكدت أن الصحبة بين الفول والسوس فى أطباق الكلية لا يمكن فصم عراها .. وخشيت أن يكون للسوس معزة عند الكلية وأن يؤخذ ملاحظتى تلك على أنها اهانة للسوس وبالتالى لادارة الكلية .. وأن تكون لادارة الكلية حكمة فى تطعيم الفول بالسوس وأن يكون به نوع من الفيتامينات العسكرية

الضرورية لنا . ولم يكن هناك بد بعد ذلك من اصلاح خطئى ولا سيما أن الأومباشى كان لم يزل مسلطا على نظرته القارصة . وأسرعت أقول متمتما فى اعتذار :

— أصل فيه ناس مايحبوش الفول ويحبوا ياكلوا السوس لوحده .

ورغم ذلك .. ورغم ما بالفول من السوس .. أو على الأصح رغم ما بالسوس من فول .. كانت المعدة الطيبة ترحب بكل شيء وتقبل على كل شيء .. وكنا نعود بها من الطابور خاوية خالية .. فنقذف اليها بكل ما تيسر من عدس فت فيه العيش أو بطبق الفول المدمس ثم نقذف وراءها بقبضة من الجبن ثم نغطى كل هـذا بشقفة حلاوة طحينية ونخرج من الميس (المطعم) ونحن أشـبه بالمحقونين بالبنج .. ولم أشبه ؟ ! .. وكان تأثير العدس والحلاوة .. تأثير مخدر لا يقل عن أقوى حقن البنج .

وبعد هذا .. بعد اليقظة المبكرة .. والجهد الشاق فى الطابور وقبل الطابور . وبعد أكلة البنج اياه .. ندخل الفصول لنستقر بأجسادنا المرهقة ومعداتنا الممتلئة على مقاعد التخت .. وننصت الى ماذا ؟ .. الى مبادىء الحرب .. أو معركة واترلو .. ؟

ولا نكاد نستقر على مقاعدنا .. ولا يكاد المدرس يفتح فاه ..

حتى تبــدأ المعركة .. معركة واترلو من فم المدرس .. ومعركة النوم فى أعيننا .

وأجلس على المقعد رافعا رأسى مبرزا صدرى .. وبى ما يسمونه « حلاوة الروح » الباقية من أثر الطابور .. ثم أحس نعمة الاستقرار وراحة الجسد المنهك يهدأ أخيرا فوق المقعد . وأترك عضلاتى المشدودة تسترخى رويدا رويدا .. ثم أرقب المدرس — من ناحية الشكل طبعا — لأنى أعتقد أن مراقبته من ناحية الموضوع أمر لا يستدعى اســتعجالا .. ويزداد بى احساس الراحــة وأزداد استرخاء .. والمدرس منطلق فى الحديث .. ثم أحس بتثاقل جفنى .. ولا أكاد أترك نفسى تستسلم لموجة الراحة التى غمرتها حتى أتنبه الى مدى خطورة ما أوشك أن أقع فيه .. وأدرك أنى على وشك أن أرتكب جريمة النوم فى الحصة .. وهى لا شك جريمة كبرى من رجل عسكرى .. يجب أن يظل طوال الحصة مصلوب الجسد بارز الصدر مرفوع الرأس .

وأنفض النوم عن عينى وأهز رأسى وأحاول أن أركز نظرى فى شفتى المدرس وذهنى فى الكلمات المتطايرة من شفتيه .. وأصيب منها رشاشا عن دوق ولنجتون وكاتربرا وأشياء من هذا القبيل لا أجد لها معنى ولا أفهم بينها ارتباطا ثم أحس نوبة الراحة تعاودنى وبالمدرس يطول .. وبشفتيه تنفرجان ثم اذا بى أجده قد أضحى

شبيها بخادم كان لدينا يسمى أحمد المهدى وأتوهمه يقبل على فى بشاشة وترحاب ثم فجأة أحس بكوع فى جانبى فأرفع رأسى المنثنى فوق صدرى وأحملق بعينى بشدة حتى أرى كل من حولى أنى فى أشد حالات اليقظة .

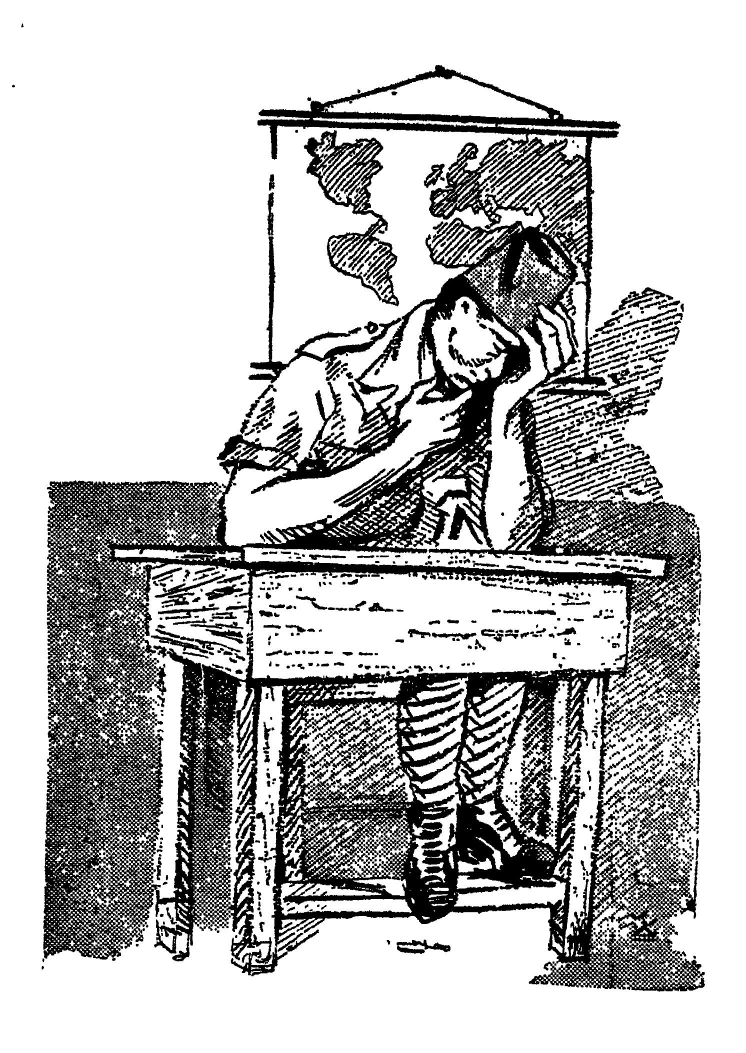
وأسمع جارى يهمس بى « الراجل بيبص لك » .

ومرة أخرى تبدأ المعركة .. وأضع نفسى من باب الاحتراس خلف ساتر من ظهر أحد الجالسين أمامى وأظل أتحرك يمنة ويسرة أضعه فى الخط الموصل بينى وبين المدرس .. ويهجم النـــوم .. ويتحرك الساتر .. فاذا بى صريع النوم .. وفى العراء .. بلا ساتر .. واذا بالطابور الزيادة يرف على رأسى من فم المدرس .. كما يقول أبناء البلد « زى الحلاوة » .

وهكذا كنا نقضى نصف الحصة بين صرعى واترلو . والنصف الآخر .. بين صرعى العدس والحلاوة الطحينية .

كانت المعركة عامة بيننا وبين النوم .. وكان النوم يخرج منها فى كل حصة منتصرا .. تاركا خلفه مالا يقل عن عشرة ضحايا .. من ضحايا الطابور الزيادة .. الذى أوقعـــه بهم المدرس لنومهم فى الدرس .

اثنان من كل الدفعة هما اللذان أفلتا من الجزاء .: أولهما .:



جمال صبرى .. الذى لم يستطع النوم أن يصرعه .. لأنه كان مصابا بالأرق .. لوقوعه فى الحب .

والثانى .. وهو .. أحمد فؤاد .. كان ينجو من الجزاء .. لا لأن النوم لم يستطع صرعه — فقد كان دائم النوم .. رغم أنه أول الدفعة .. ورغم أنه كان أشدنا ذكاء — ولكن لأنه كان النوم الحصصى .. أو على الأصح .. كان فنانا .

كان أحمد يبدأ النوم فى أول الحصة .. فلا يستيقظ الا فى آخرها .. كان ينام بعد « ثابت » الأولى التى يقولها حكمدار الفرقة عند دخول المدرس .. وكان لا يستيقظ الا بعد « ثابت » الثانية التى يشيع بها حكمدار الفرقة المدرس عند خروجه .. لا أذكر — بلا تشنبع — أن أحمد سهر حصة واحدة .. وكان يجلس فى الصف الأول .. بلا ساتر يستره ومع ذلك لم يأخذ جزاء واحدا .

عجيبة . !!

أجل .. هى عجيبة فعلا .. على أى انسان .. ولكن ليس على أحمد .. كان أحمد يجلس على التختة وأمامه ورق ومذكرات مطبوعة أو ورق أبيض وكان يتكىء بمرفقه على الدرج ويسند جبينه على كفه اليسرى مفتوحة ومائلة على وجهه وحاجبه وعينيه ثم يمسك القلم بيمينه ويضع سنه على الورق كأنه يكتب .

ويجلس أحمد طول الحصة على هذا الوضع والناظر اليه يجزم بأنه منهمك فى أخذ مذكرات أو كتابة ملخصات لما يقوله المدرس .. بينما يكون أحمد مستغرقا فى نوم العوافى .

ويعلم الله أنى حاولت أن أقلده وأنى أمسكت القلم وأسندت رأسى بالطريقة التى يفعلها .. ولكننى لم أكد أستغرق فى النوم حتى أفلت القلم من يدى وانزلق على الورق .. ثم سقطت رأسى من كفى .. وكانت فضيحة .. علمت بعدها أن « ولا كل من ركب الحصان خيال » .

وهكذا ظللنا فى مصارعة النوم .. ونحن نسترقه فى الحصص خلسة .. حتى من الله علينا بفرصة كبرى .. أصبحنا نتعاطى النوم فيها .. علنا .. بلا خوف ولا خشية .. فى وضح النهار .. وفى الحصة .. وأمام المدرس .

كيف ؟ !

مسألة بسيطة .. لقد بدأ مدرس التاريخ يشرح المعارك بالأفلام السينمائية وبالفانوس السحرى . ومعنى الشرح بالسينما والفانوس السحرى .. ان الحصة تمر ونحن نرتع فى بحبوحة من الظلام .. والظلام كما يقولون سترة .. وتحت جنحه يرتكب الانسان كل مالا يجرؤ على ارتكابه فى النور ووجدنا الفرصة العجيبة قد

سنحت .. وجلسنا نتحفز .. ولم يكد النور يطفأ والفيلم يبدأ .: « بالتقهقر من مونز » حتى سقطنا جميعا .. صرعى النوم .

وهكذا استمرت الأفلام تعرض فى الحصص .. ونحن متمتعون بالنوم الهادىء الذى لا يقطعه خوف ولا يقلقه خشية .. نغمض أعيننا مع اطفاء النور .. ونفتحها مع اضاءته .. والمتقهقرون من مونز مستمرون فى تقهقرهم .

وحسب قانون القدر.. الذى لا يهب الانسان نعمة الا استردها نقمة .. فوجئنا ذات حصة بما هتك سترنا وكشف أمرنا .

فى احدى الحصص .. والعرض على أشده .. والمتقهقرون من مونز ممعنون فى تقهقرهم .. والمتفرجون على المتقهقرين من مونز ممعنون فى شخيرهم .. اذا بالفيلم يقطع .. واذا بالنور يضاء .. واذا بالمدرس المنهمك فىالشرح يكتشف أنه يشرح لثلاثين نياما.. وهكذا ضبطنا .. جميعا بلا استثناء .. حتى المصابين بالأرق ونحن متلبسون بجريمة النوم العلنى مع سبق الاصرار .. ووجد المدرس أن من العبث أن يوقع أى جزاء فقد كانت المسألة فى نظره أفجع وأروع من أن يحسمها هو .. فانطلق من الحصة يدعو كبير المعلمين حتى يتولى هو بنفسه أمر العصاة الجناة .

وأقبل كبير المعلمين .. وكنا قد استيقظنا . وجلسنا نرتجف من الذعر. ونظر الينا الرجل ثم هز رأسه هزات محنقة وجلس فى تؤدة وأمر المدرس باستمرار العرض حتى يكشف هو بنفسه أمر النيام .

وأطفىء النـــور .. وكنت فى حـــالة من الذعر تجعلنى قطعا لا أستطيع النوم حتى لو أردته . لقد كنت أخاف الباشجاويش التعلمجى فما بالكم بكبير المعلمين نفسه .

وجلست فى الظلمة وأنا أحملق لأول مرة فى المتقهقرين من مونز وأخذت أنقل البصر فيمن حولى داعيا الله أن يبعث فيهم اليقظة وأن يبعد عنهم النوم .

ورويدا رويدا تبددت من نفسى حالة الذعر وأيقنت أننا بلا شك نستطيع أن نجتاز التجربة بنجـــاح . وأننا سنثبت للرجل أن فى السويداء يقظى .

مخلوق واحد هو الذى كنت أخشى عليه .. وذلك هو أحمد فؤاد أخصائى النوم فى الحصص .. انه قطعا لن يتحمل اليقظة .. ويداهمه النوم فيستسلم له كما هى عادته . ولن يفيده فنه فى التنكر والتستر اذ ليس هناك ما يستدعى قط أن يمسك قلما ولا أن يدعى الكتابة وهو فى الظلام .

مسكين أحمد .. يارب ابعد عنه النـــوم .. يارب صحيه .. وهكذا ظللت أدعو طوال الفيلم .

وقبيل النهاية أحسست بالاسترخاء وبشعور الراحة الذى ينتابنى قبيل النوم .. فانتفضت فى مكانى .. وظللت أفكر فى كل الأمور المزعجة التى تبعثنى على الاستيقاظ .. وبين آونة وأخرى أدعو .. يارب ايقظ احمد .. يارب ابعد عنا النوم .

وأخيرا فتح النور .. وكان أول من صوبت اليه نظرى هو أحمد فؤاد .. الحمد لله .. لقد كان فى تمام اليقظة .. برافو أحمد وظللت أتنقل ببصرى بين الاخوان فاذا كلهم يقظون .

فرد واحد هو الذى لم يحتمل التجربة وصرعه النوم فاستغرق فى سبات عميق وهو .. كبير المعلمين .





عندما أذكر بداية عهدنا بركوب الخيل فى الكلية الحربية أجدنى شديد الشبه بصاحب السلطان رغم أنى كنت بلا حول ولا طول ولا قوة ولا سلطان ..

يبدأ الأمر بنا بعد أن استلمنا بنطلونات الركوب ذات السيقان المنتفخة والمظهر الأنيق ، وقد ارتديناها حتى يضبطها علينا الترزى أو بتعبير العسكرية (يقيفها) علينا . ووقفنا نتطلع الى المرآة المستطيلة الملصقة بحائط عنبر النوم . وقد داخلنا احساس لأول مرة فى الكلية — بعد طول نواضع وبهدلة — بأننا أصبحنا من ذوى الشأن ، وأن هذه هى أول تباشير الأرستقراطية .

والواقع أن منظر البنطلون كان وجيهـا فعلا لضيقه عنـد

الخصر واتساعه فوق الركبتين والقالشين الملتف بأناقة وانتظام حول الساق (لفة مقلوبة غير لفة المشاة) وقد أعطاها امتلاء عند السمانة وضيقا عند الركبة . كل هذا خلع علينا بعض الوجاهة التى افتقدناها فى البنطلون التروواكار الهابط الى ما بعد الركبة ، وجزمة الألعاب والشراب الصوف البنى والسيقان العجفاء العارية .. وغيره من مسببات البهدلة وقلة القيمة ، وأحسست وأنا أنظر الى المرآة باسترداد بعض الثقة الضائعة فى مظهرى .. وقلت لنفسى .. وما بقى .. أعظم .

وما أظننا كنا مبالغين فى تلك الفخامة التى خلعناها على أنفسنا ونحن نتصور أنفسنا (ركوبا على جياد .. أو باختصار .. فرسانا .. فالفروسية قرينة الفخامة والارستقراطية والوجاهة والأبهة .. وما أظن هناك أشد مهابة من راكب ظهر الحصان اللهم الا صاحب ابن المقفع راكب ظهر الأسد .. وهو مالم نكن نتطلع اليه أبدا .. لأن ركوب الأسود لم يكن وقتذاك ضمن برنامج الكلية .. ولله الحمد) .

وما أظن صورة الفارس تقرن الا بكل ما هو جميل جليل .. فاذا وقف الطالب منا وقتذاك وقد نظر الى نفسه فى المرآة وهو يرتدى بنطلون الركوب لأول مرة فى حياته .. ووثق أن الشيء المحتم بعد ارتدائه بنطلون الركوب .. هو أن يركب فعلا .. ويصبح

بذلك فارسا .. فهو معذور جدا اذا اندفع به الذهن .. فصور له نفسه عنترة فى حومة الوغى جائل صائل مكرمفر .. هتاف بقول الشاعر :

حصـــانى كان طـــلاع المنـــايا فخاض غمارها وشرى وباعـــا

أو صور له نفسه من رعاة البقر الأمريكان يندفع بالحبل ذى الخية ودستة المسدسات فى منطقته .. أو من فرسان الهنود ينطلق صارخا مولولا مثيرا الفزع والهول .. أو بالقليل جدا — مع التواضع الشديد — فارس مصرى يتهادى بحصانه بجوار منزل حبيبته .. المطلة من الشباك .. ليختطفها وينطلق بها .. الى جنينة النزهة .. أو الأسماك .

ولقد كنت أنا من النوع المتواضع الأخير .. فلم تكد صورتى تلوح لى فى المرآة ببنطلون الركوب .. ولم أكد أتصور نفسى قفزت على الحصان وأصبحت فارسا .. حتى وجدتنى أطير .. الى شارع روض الفرج .. فأستقر أسفل شباك ماريكا .. ابنة صاحب الفرن الأفرنجى .. ولست أريد من المستمعين سخرية .. حقيقة ان اسمها ماريكا .. وحقيقة ان أباها صاحب فرن أفرنجى .. وحقيقة أننا لم نرها الا تلعب الحجلة أو تقضم الصميت .. ولكن كل هـــذا لا يمنع من أن تكون قطعة فنية رائعة فى الثالثة عشرة .. ذهبية الشعر ، خوخيـــة اللون والملمس .. والمذاق .. وكان التنـــافس

عليها بين صبية روض الفرج وشبرا الثانوية على أشده .. ورغم أنها منحتنى بضع ابتسامات ورغم صداقتى لأبيها نتيجة مواظبتى على شراء البقسماط والقراقيش من مخبزه فلم أكن أحس أنى فى حومة غرامها بالفارس المجلى ..

وكانت دوامة الكلية وشقاءها وجهدها .. قد أنستنى حتى نفسى .. ومن أكون وماذا أفعل .. وبالتالى أنستنى ماضى .. بما فيه ماريكا .. وغير ماريكا .. ولم يكن ما أنا فيه من بهدلة وقلة قيمة ليسمح لى بالتفكير فى أى نوع من المغامرات والغراميات .. ولكن ذلك لا يمنع من أن المشاعر القديمة كانت كائنة كامنة .. ولذلك لم أكن أنظر الى منظرى ببنطلون الركوب .. وأتخيل نفسى فارسا حتى وجدت أن خير ما أفعل .. بدل المعامع .. والمواقع .. ومغامرات رعاة البقر وولولة الهنود .. أن أكفى خيرى شرى .. وأن أتجه رأسا الى الآنسة ماريكا .. المطلة من الشباك .

ومضت بضعة أيام قبل أن يحل موعـد طابور الركوب .. ولم يكن لنا قبل ذاك حديث سواه .. أو تفكير — ان كانت هناك فرصة للتفكير — فى غيره .. ولم يخل الأمر من أن يكون بيننا بعض أصحاب السوابق فى الركوب .. سواء فى عزبة آبائهم .. وفى الهرم .. أو فى رحلات مشابهة .. فصالوا بيننا فى الحديث عن

الركوب وجالوا .. وحدثونا عن متعة الركوب وانطلقوا يصفون لنا بعض مغامراتهم فزادونا شوقا وملأونا رغبة .

وأخيرا .. حل موعد الطابور ، وهبطنا من العنابر وسرنا لأول مرة منذ دخولنا الدوامة .. فى طرب ونشوة .. وبنطلونات الركوب ذات القماش السميك المضلع ملتصقة بأجسادنا ، مكوية نظيفة جديدة .. وأحزمة الوسط (القوايش) العريضة البيضاء تشد البنطلونات الى خصورنا .. ونحن نشف ونرف .. أو كما يقــول المثل — الذى لا أفهم معناه حتى لا يسألنى عنه أحد — : « على سنجة عشرة » .

لم يكن ينقصنا سوى شيئين حتى تتم بهما القيافة .. ويكمل بهما منظر الفارس .. أولهما المهماز .. وثانيهما العصا .. وهما ما كنا نبصر بهما الطلبة القدامى .. وبما أننا لم نزل بعد حديثى عهد بالفروسية فقد حرمه علينا المهماز والعصا اللذان لا يصرفان الا للأكفاء القديرين .. حتى لا يساء استعمالهما .

ما علينا .. بناقص المهماز والعصا .. عن نفسى أنا .. وفى قرارة ذهنى .. ما كنت أظن ماريكا — وهى محور المسألة كلها — تهتم كثيرا بمسألة المهماز والعصا ، بل لا أظن أنها سمعت عنهما من قبل ولا عرفت أنهما من لوازم الفارس الكفء .

واصطففنا فى أرض الطابور . وكانت الساعة السادسة والنصف وأجرى الضابط النوبتجى التفتيش علينا ثم أمر حكمدارنا بأن يحرك

الطابور الى السوارى وأن يحافظ على النظام والضبط والربط .

وكان حكمدار فرقتنا الأصلى هو على حلمى .. وقد كان يبدو رجلا وقورا ، متزنا متئدا وهو باق فى السنة الأولى من العام السابق . وكان الذى يليه فى الأقدمية هو عبد العزيز الجمل وهو الآخر باق من العام السابق ولكنه وصاحبه على طرفى نقيض .. كان عبد العزيز عصبيا متسرعا سريع الغضب ، وكنت أعرف أن لديه فى دولاب ملابسه — دونا عن بقية الطلبة — بدلة ملكى لا يكاد أحـد من الصف ضباط يثيره أو يغضبه حتى يعدو الى الدولاب فيرتديها ويطلب الاسـتقالة . فلا نزال به نهدئه حتى يعدل عنها .

وكنا كثيرا ما نتسلى فى الفترات بين الحصص أو فى حصص المذاكرة بتهييج الجمل واثارة حنقه ولكى يثأر منا كان يستحلف على حلمى بالخروج من الفصل حتى ترسى عليه الحكمدارية ثم يبدأ فى الامارة علينا والتنكيل بنا .

وفى هذا اليوم كان على حلمى متغيبا ، وكان عبد العزيز متوليا حكمداريةالطابور .. وبدا لنا من حركاتهواضطرابه انها المرة الأولى التى يتولى حكمدارية طابور متحرك .. وبدأ ينادى علينا بصوته الرفيع « أربعات تشكيل .. يمين » .

وزادت بنا النشوة .. والجمل يقودنا .. وهو يحاول السيطرة

على أعصابه واخفاء اضطرابه .. ونحن تحاول اخفاء ضحكنا عليه .. فقد كنا ما زلنا نسير فى رحاب الكلية وكنا نخشى أن يبصرنا ضابط أو صف ضابط فيوقع علينا الجزاء .

وجاوزنا باب الكلية الخلفى المؤدى الى السوارى .. ونحن نحاول التمالك .. حتى بدأنا نعبر باب السجن الحربى الكائن خلف الكلية .. واذا بنا نفاجأ بالقرقول يخرج لنا تحت السلاح باعتبارنا طابورا متجمعا . وضرب الجمل لخمة .. وهو يرى حارس السجن يصرخ بأعلى صوته : « قرقول سلاح » .. ويبصر القرقول يصطف لتحيتنا ويؤدى لنا سلام سلاح .

ولم يكن قطعا ما يدعو لهذه اللخمه .. فقد كان على الجمل أن ينادى علينا ببساطة . لليمين أنظر .. ردا لتحية القره قول .. ولكن اضطرابه الأصلى من مجرد توليه حكمدارية طابور متحرك لأول مرة .. ومفاجأته بصيحة الحارس وخروج القرقول تركته مذهولا لا يعرف ماذا يفعل .. وأخذنا نهمس به أن يرد التحية .. فلما فتح الله عليه .. نادى « للشمال أنظر » أى ننظر فى الاتجاه المضاد للقرقول .. أى نشيح بوجهنا عنه .. وصحنا به أن يعدل نداءه .. ولكن كانت قد أصابته نوبة « للشمال أنظر » فلم يعدل عنها الا ونحن قد جاوزنا القرقول .

وقد تكون المسألة زلة لسان لا تدعو لأى ضحك .. ولكن

لست أدرى أى عاصفة من الضحك تملكتنا وقتذاك ، ولا سيما بعد أن ابتعدنا عن السجن وخرجنا الى العراء ولم يعد هناك لأحد أية رقابة علينا ..

وهكذا أخذنا حريتنا ، حتى اقتربنا أخيرا من خانات السوارى .. فانتظمنا وأخذنا نستعد لأعمال الفروسية الباهرة التى نوشك أن نأتى بها .

ونظرنا حولنا .. فاذا بالخيل الموجودة كلها .. لا تعدو واحدا .. يا نهار أسود .. حصان واحد !! وأحسسنا بفجيعة كبرى .. ماذا تراانا سنفعل بهذا الحصان الفرد الأحد .. نركبه جميعا مرة واحدة .. أم نتبادل عليه الواحد بعد الآخر .. آخذين لكل واحد لفة .. كما نفعل بالبسكليت .

واصطففنا أمام الحصان الوحيد وبأنفسنا لهفة على ما نوشك أن يفعل بنا ونفعل به ، وبعد أن حيا حكمدارنا ضابط السوارى وأنبأناه أن الفرقة تمام أمره بأن تقف « صفا » — وهى وقفة أكثر راحة — ثم بدأ يفسر لنا ما خفى من أمره .. وأمر الحصان الوحيـد .

وأحسسنا بخيبة أمل كبرى عندما اتضح لنا أن جلائل أعمال الفروسـية التى كنا نمنى النفس بهـا قد تضاءلت وانكمشت و « صفصفت » على محاضرة فى أجزاء الحصان .

أى والله .. لقد أخذ التعلمجى الصف ضابط .. ينبئنا لا فض قوه .. بأن هذا هو ذيل الحصان .. وان هذه ساق الحصان .. وان تلك عنق الحصان .. وأذن الحصان .. ورأس الحصان .. وأخيرا وبعد كل هذا أنبأنا بما لم نحط به علما ، ولوح بيديه حول الحصان .. قائلا : « وده كله اسمه الحصان » .

وانتهى الطابور أخيرا .. وعدنا الى الكلية — كما يقولون — بخيبة رجانا .. بعد أن قسر المعلم الماء بعد الجهد بالماء .. وبعد أن علمنا أن الحصان الذى رأيناه .. هو حصان .. وليس كما قد يخطر ببالنا أسدا .. أو تمساحا .. أو وطواطا .

وصبرنا وأخلق بذى الصبر أن يرى فرجا .. وأتانا الفرج بعد بضعة أيام فى الطابور الثانى .. وتحرك موكبنا للمرة الثانية فى الصباح المبكر الى خانات السوارى .. وكان الوقت قبل الشتاء .. والشمس فى مشرقها لم تتجاوز الأفق .. وموجات الضباب تتوافد علينا متثاقلة تارة ، متطايرة أخرى .

ونادى الحكمدار بنا «قف» فتقارعت الكعوب فى ضربة واحدة كأنها وقفة رجل واحد . ولاحت الخيل فى الأفق تتهادى كالقافلة يركب عساكر الفرسان بعضها ويسحبون البعض الآخر ، حتى وقفت على مقربة منا .

وتفرقنا من الطابور وأمرنا بأن يتسلم كل منا حصانا .. وقسمنا الى جماعات ، كل جماعة فى خانة .. ولكل خانة معلم صف ضابط .. ويشرف على الخانات كلها .. اليوزباشى الركبدار .. أو معلم فن الركوب .

ووقفنا بجانب الحصان .. ومر الوقت بنا ثقيلا .. والتعلمجى يعلمنا كيف نقف بجانب الحصان .. وكيف نقف أمام الحصان .. ثم .. كيف نركب الحصان وكيف ننزل عن الحصان .. وأخيرا كيف يكون « قيام العسكرى السوارى الراكب » .

فقط .. شيء واحـد .. أريد أن أفعله .. وهو أن أعـدو بالحصان .. أن أنطلق .. أن أطير ..

ويح التعلمجى المكسال..ماله يصر على ان تتهادى تهادى النعاج والحمير .. نحن نركب خيلا .. جيادا .. والجياد لا بد ان تنطلق ..

ونظر أحدنا الى الضابط فاذا به قد تباعد عنا قليلا الى احدى الخانات الأخرى ... وانتهزها فرصة .. وهتف بالتعلمجى راجيا .. « عايزين نجرى شوية يا أومباشى » .

ولم يكذب المعلم له رجاء .. ووجدته ينادى بصوته الجهورى : « الغار » ولم أكن أعرف ما معنى الغار .. ولا ماذا قصد بكلمته .. ولكن الخيل كانت أعلم بها منا .. اذ لم تكد الكلمة تنطلق من

شفتيه .. حتى وجدنا الخيل تنطلق بنا خببا .. واذا بنا تؤخذ على غرة .. فنتأرجح ونهتز وتتمايل يمنة ويسرة .. ولا نكاد نحفظ توازننا .. فنطبق بأيدينا على مقدمة السرج .. واذا بالتعلمجى يصيح بنا ناهرا .. كأننا قد أتينا أمرا ادا .. وفعلا نكرا . « سيب يافندى القربوص منك له » .

وتركنا القربوص .. وأخذ .. هو يكرر .. قيام العسكرى السوارى الراكب .. ونحن فى واد .. والعسكرى السوارى الراكب فى واد .

وهكذا فى غمضة عين .. وجدت نفسى كصاحب السلطان .. وراكب ظهر الأسد .. بل شر منهما كثيرا .. فقد كنت .. هيابا لمركبى .. دون أن يكون لى — على ما أظن — أى هيبة فى عين ناظرى .

ومن أين لى الهيبة والطربوش فقد زاويته التى استقر عليها وانزلق على مؤخر الرأس واستقر على الأذنين ، والجسد ، قد زلزلت الأرض تحته زلزالها ولم يعد يقر له قرار فهو أشبه بالمستقر على ياى لا يكاد يهبط عليه حتى يرفعه .

وأخيرا لمحنا اليوزباشى الركبدار ، ورأى الزلزال الذى أثاره التعلمجى أسفلنا هو وأصحابه الخيل .. بمسألة الغار .. والظاهر أنه قد رأى — والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه — ان

تلك منة لا نستحقها بعد .. فصاح بالتعلمجى ناهرا «معتادا» .. وكرر المعلم كلمته .. آمرا — الخيل طبعا — « لأننا فى الواقع كنا تماما كصاحب السلطان لا نملك من أمرنا شيئا » بأن تسير بالخطوة المعتادة .. ورضخت الخيل للنداء وسارت الهوينا .. وانتهى الزلزال وانتهى الطابور .

وكانت التجربة قصيرة .. تماما كالزلزال القصير الذى لا يخلفه وراءه دمارا ولا خرابا .. ونزلنا من فوق ظهور الخيل .. ولسان حالنا يقول :

انل قدمىّ ظهر الأرض انى

رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

وعندما استقر بنا الحال على الأرض وعاودنا الاطمئنان .. وأحسسنا بالاستقرار.. وتحسس كل منا جسده فوجده سليما .. بدا الغرور يتسلل الى رؤوسنا .. وعادت أحلام الفروسية تداعب نفوسنا .. وأخذنا خلال العودة الى الكلية تتندر بما فعلناه فى الطابور ..

وحل موعد الطابور الثالث .. وذهبنا ونفوسنا تتأرجح بين الرغبة فى الفروسية والقلق من مسألة الغار ، ولكنه كان قلقا خفيفا، فقد كانت التجربة كما قلت قصيرة .

ولم يضيع التعلمجى وقتا فى « أمام الحصان » و « بجنب الحصان » وسرعان ما أمرنا بالركوب .. واستقر كل منا على ظهر حصان .. وسرنا الهوينا وهو يذكرنا بقيام العسكرى السوارى الراكب .. وطبقنا كلامه وأبرزنا الصدور ورفعنا الرؤوس .

واندفعت الخيل تتوثب وتهتز .. ونسينا من جانبنا كل ماوعيناه من قيام العسكرى السوارى الراكب .. ولم نعد نذكر الا محاولة الاستقرار على ظهر هذا الزلزال المتحرك ..

ولم تكن الخيل كلها سواسية .. ولم يكن مسيرها « الغار » متشابها بل كان هناك على حد تعبيرنا خيل ذات « غار ناشف » و « غار طرى » أى خيل شديدة الرجرجة ترفع راكبها الى السماء وتهبط به الى أسفل سافلين ، وخيل ناعمة السير هادئة الرجرجة خفيفة النط .

وكان الجواد غير الكريم الذى تشرفت بامتطائه من النـــوع الأول وكنت فوقه أشبه « باليويو » .

ولم تكن التجربة هذه المرة بالسهولة السابقة ، بل كانت أطول عمرا وأكبر أثرا .. وهبطنا من فوق ظهور الخيل .. وقد فقدنا كل أثر من آثار الهيبة ، وقد اختلط عرقنا بالتراب الذى أثارته سنابك الخيل . وكبست فى رؤوسنا الطرابيش الذى أحال التراب حمارها

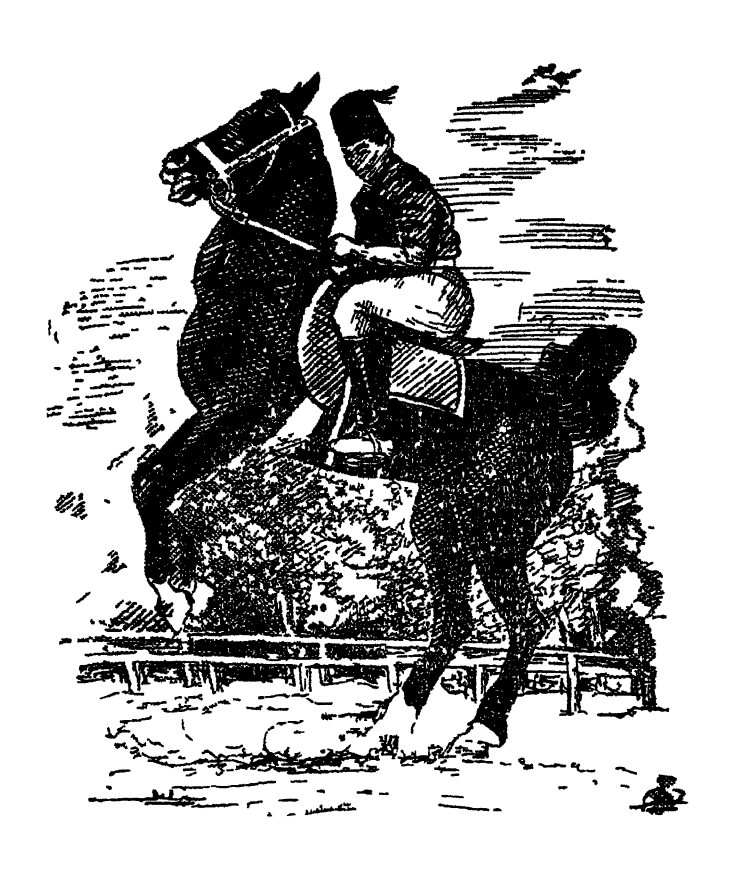
الى بياض . ووقفنا على أقدام كليلة متعبة .. ولم تجسر أحلام الفروسية أن تقترب من أذهاننا .. بل عدنا الى المدرسة .: وبنا الكثير من التعب والاعياء .

واستمرت الطوابير على هذا المنوال .. وزادت علينا مسألة جديدة .. وهى رفع الركاب .. وهو الحديد الذى نضع فيه أقدامنا فيهبنا بعض القدرة على الثبات ويمنحنا بعض التوازن والاستقرار.

كان لايكاد الطابور يبدأ حتى ينادى المعلم نداءه المروع .. « خانه صفا .. شيل الركاب .. الغار .. » .

وننفذ نحن الجزء الأول من النداء وتنفذ الخيل الجزء الثانى.. وتبدأ المعركة بيننا وبين الاستقرار ، ونظل ندور ونلف كأننا فى ساقية .. حتى نضحى فى حالة .. يصبح بعدها السقوط .. غاية المنى .. فهى على الأقل سقطة .. بعدها الراحة .. ولقد حاولها أحدنا فعلا . فغافل التعلمجى وقذف بنفسه من فوق الحصان وانتظر أن يعدو الحصان هاربا .. ويمر الطابور وهو واقف على قدميه .. ولكن الحصان الوقح لم يهرب ولم يفر ، بل ظل واقفا وقفة الوفاء والاخلاص لراكبه .. وراكبه يدفعه عنه راجيا « أجرى الله لا يسيئك .. فارقنى ياسيدنا » حتى لمحه التعلمجى فصاح به « اركب » .

وأوقعنى الحظ مرة بعد أخرى فى نفس الجواد غير الكريم



ذى الغار الناشف ، وظللت أهتز فوقه وأنا رافع ركابى المرة بعد المرة حتى جرحت ركبتى .

وازداد الجرح مرة بعد مرة .. وأنا لا أجرؤ على الذهاب الى المستشفى فقد كان تقديم العيادة فى نظرنا جرما لايقدم عليه الا الكسالى والبلطجية . حتى أضحى الجرح لايمكن السكوت عليه ..

وذهبت الى المستشفى ووقفت فى طابور الطلبة المنتظرين العرض على الطبيب ، وحل دورى ووقفت أمام الطبيب المنهمك فى الكتابة فى أرانيك العيادة .. ودون أن يرفع بصره سأل :

— ها .. وانت ؟ .. عندك ايه .

— ركبتى .

— مالها ؟ .

— متعورة .

— من ايه ؟ .

— من الركوب .

ودون أن ينظر الى أيضا التفت الى التومرجى الواقف بجواره وقال ببساطه :

— جبيرة .. اللى بعده .

ولم أغادر مكانى ولم أترك « اللى بعدى » يتقدم اليه .. ورفع الطبيب بصره الى وجهى لأول مرة متسائلا :

— ايه .. فيه حاجة .

وتلعثمت وقلت أحاول أن أشرح له المسألة .. فقد اعتبرت أن وضع الجبيرة على الجرح سيؤلمنى أشد الألم .. والمسألة بعد كل هذا لا تحتاج الى جبيرة .

قلت متلعثما :

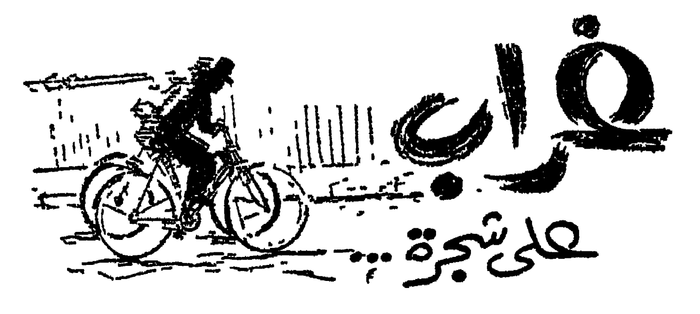
— بس ركبتى ماتستحملش الجبيرة ..

وقبل أن أتم حديثى نظر الدكتور الى التومرجى وقال بنفس البساطة :

— طيب حطها له فى ركبته الثانية .

وقبل أن أنبس ببنت شفة جذبنى التومرجى من أمامه مجيبا « حاضر يافندم » .. وهكذا استلقيت فى فراش المستشفى وبركبتى السليمة جبيرة .. وركبتى المجروحة كما هى ..

ورفعت بصرى الى سقف المستشفى .. وعاودتنى أحلام الفروسية وتذكرت ماريكا .. وهى تحجل وتقضم الصميت .. فأغمضت عينى فى يأس واستسلام .



من النكت التى تروى عن الحرب الماضية أن أحد العساكر الانجليز كان يترنح مخمورا ذات ليلة فى احدى حوارى القاهرة فالتقى برجل ضرير يتلمس طريقه متوكئا على عصاه فصاح به فى صوته المخمور بتلك الجملة الشهيرة التى كانت لا تفتأ تتناقلها ألسنة الجنود وقتذاك « شفتى بنت » . وانزعج الضرير من صيحة العسكرى . وما لبث أن دفعه جانبا وهو يجيبه متبرما « يا أخى ابعد عنى .. أنا شايف السكة .. لما حاشفلك بنت » .

ويذكرنى قول الضرير للعسكرى بقولى ذات يوم لمحمد محمود عبد العزيز وقد خرجنا فى طابور الطبوغرافيا وامتطينا الدراجات الخضراء وسرنا أزواجا نخترق شوارع كوبرى القبة وقد سار هو بجوارى وهمس الى وهو يسترق النظر الى أعلى « شايف البت دى .. هايلة » .

ولم أكن زاهدا ولا قصير النظر ولا ضريرا .. وكان الأمر الطبيعي الواجب حدوثه .. هو أن أرفع بصري بسرعة وبحركة لا ارادية لأمتع البصر بنظرة خاطفة من البنت الهائلة التي لفتت نظر صاحبي . ولاسيما أن قائد الطابور ومدرس الطبوغرافيا اليوزباشي حافظ موافي كان « نافشا » كالأسد أمام الطابور كأنه يقود اقتحاما بالفرسان غير ملق الينا كثير التفات ونحن نتهادى في المؤخرة .

كانت كل الظروف توجب علي أن أختطف من البنت الهائلة نظرة.. ولكني مع ذلك . لم أزد على أن أقول لصاحبي ما قال الضرير للعسكري الانجليزي « يا أخي ابعد عني .. أنا شايف السكة .. لما حاشوف البنت » .

ويبدو أن الأمر يحتاج الى شيء من الشرح والتفصيل .

سبق أن قلت ان والدتي كانت تجد في ثلاثة أرباع الأعمال التي يباشرها الصبية .. ونباشرها نحن — أنا وأخوتي — بالتبعية .. خطورة على حياتنا .. وكانت لا تكاد تطمئن على حياتنا الا ونحن جلوس أمام المكتب أو نيام في الفراش ..

كان لعب الكرة والتجديف والسباحة وعبور الطريق وركوب الترام .. و .. من المهالك والأخطار التي يجب علينا تجنبها . بل اني لأذكر ونحن نقطن في جنينة ناميش في أحد المنازل المطلة على شارع الخليج وسكة حديد حلوان أن فوجئنا بها — أي والدتي —

تدخل علينا مندفعة من الشرفة المطلة على الشارع وهى تصرخ وتولول كأن كارثة قد حلت ، وصحنا بها نستفسرها فى ذعر عن الخبر فأنبأتنا وهى تكاد تخر مغشيا عليها أنها أبصرت أخى أحمد واقفا على كوبرى المنيرة (الذى يعبر سلمه السكة الحديد بين المنيرة وجنينة ناميش) وحاولنا تهدئتها فصرخت بنا أن نحضره حالا قبل أن يسقط من سور الكوبرى على أشرطة السكة الحديد . وانطلقت أنا ومحمود الى الكوبرى فى حملة انقاذ .. وأنا أتخيل أحمد قد شاور عقله وتسلل من بين قضبان الكوبرى ثم هوى على الأشرطة وفلقت دماغه . ثم أقبل القطـــار فأكمل على بقيته .. وأعدو .. منطلقا .. وأنا أسابق الريح .

وآخيرا ... وصلنا الى الكوبرى .. ولكن .. فيما يبدو لنا .. متأخرين .. اذ لم يكن أحمد فوق الكوبرى ..

وببطء .. وسكون .. وذهول .. نظرنا .. الى أسفل .. ثم نظرنا الى بعضنا البعض فى دهشة ..

.. اننا لم نجد له أثرا !!

ولم نعرف كيف نعود لوالدتنا .. بغير أحمد..أو حتى .. جثته..

وظللنا مشدوهين على الكوبرى .. لا نستطيع حراكا .. حتى حانت منا التفاتة الى شرفة البيت من بعيد .. فوجدنا بها .. الوالدة الحزينة .. ومعها .. أحمد ! !

وعدنا الى البيت لنعلم أنه كان يلعب فى المنور .. وان الذى أبصرته والدتى طفل يشبهه .

وبهذه الوسوسة والخوف ... نشأنا ونحن نمارس لهو الصبية خلسة كأننا نرتكب المعصيات .. أو نفعل المنكر . وكانت المعصية الكبرى ... والمنكر الأشد .. هو ركوب البسكليت .

ولقد أقدم عليه أخى الأكبر .. فى غفلة من والدتى .. وأصبح بين عشية وضحاها من راكبى العجل. وحاولت أن أتبعه فى ارتكاب المعصية وتعلم العجل .. ولكن أمرى كشف ... اذ أصبت بسقطة تركت فى وجهى وذراعى خدوشا من الصعب اخفاؤها .. وحاولت أن أغير أسباب الخدوش ولكن أحد الأقرباء كان قد تصادف ورآنى متلبسا بالجريمة .فأبلغ والدتى بالأمر ... وأصبح الانكار بعد الدليلين القاطعين .. أمرا متعذرا .

وركوب العجل عند والدتى ... يعنى اشرافا على الهلاك .. وأحدث النبأ فى البيت ضجة كبرى .. فقد كان الحدث .. منى أنا .. الصبى الطيب الهادىء المطيع .. شديد الوقع .

وكرهت العجل وركوب العجل .. بعد السقطة فى الطريق .. والفضيحة فى الدار .. وأنا بطبعى أكره العنف وما يستدعى العنف وما ينتج عن العنف . وأكره أن أتعب نفسى فيما يمكن أن أكون

فى غنى عنه .. وان شغلها بما لا فائدة لها منه .. وهكذا انتهت المسألة بأن اقنعت نفسى بالكف عن تعلم العجل .. وان فى العجل الندامة وفى القدم السلامة .. وقنعت من ركوب البسكليت بسلامة الجسد ورضاء الوالدين وقلت لنفسى .. ان الجنة تحت أقدام الأمهات .. والجنة خير من العجل وأبقى .

ومرت بى الأيام دون أن أعاود ركوب العجل .. حتى دخلت الكلية الحربية .. وأبصرت مخزنا مليئا بالعجل .. فدهشت وتساءلت عن سره فانبئت أنه يستعمل فى طوابير الطبوغرافيا وعلمت أن يوم خروجنا فى هذه الطوابير آت لا ريب فيه .

ولم يكن هنالك بد والأمر كذلك من التنازل عن الجنة التى تحت أقدام الأمهات .. وان أقدم على تعلم ركوب العجل بعد أن أضحى ركوبى للعمل لا للهو .

وأذكر أنى شعرت بالكثير من الخجل وأنا أجد نفسى — دون بقية خلق الله الذين فى الكلية — الوحيد الذى لا يركب العجل . وبدأت أضيف شبحا جديدا .. وهو شبح الطبوغرافيا..الى الأشباح التى تخيفنى فى الكلية .

وبدأت تعلم العجل .. وبعد بضع مرات من التمرين بعد الغداء كنت أعرف كيف أحفظ توازنى وكيف أنطلق بالعجلة فى الفناء .

وأحسست بعد ذلك بالطمأنينة تعاودنى .. وبأنى على أتم استعداد لخوض معركة الطبوغرافيا بعجل .. وبغير عجل .

وبدأت معركة الطبوغرافيا .. هينة لينة .. بين أربعة جدوان الفصل .. وموافى على منصة المدرس مشدود القامة بارز الصدر عابس القسمات كفرسان العصور الوسطى . وقد أخذ فى الشرح لنا بلهجة شديدة عنيفة ونبرات قاطعة حاسمة كأنه ينادى على طابور خيـالة .

والطبوغرافيا — لمن لا يعرف — هو علم مسح الأرض أو رسم الخرائط .. والطبوغرافيا العسكرية هى كل ما يتعلق بسطح الأرض من الزاوية العسكرية .. من رسـم خرائط الأماكن غير المرسومة بالمسطحات والبانوراما (الرسم المائل) وقراءة الخرائط المرسومة وتكبيرها للمقاييس المختلفة وايجاد محل الانسان عليها والسير بالبوصـلة والنجوم .. أو هو باختصـار .. علم هداية العسكريين فى المعارك .. والعصا التى يتلمسون بهـا طريقهم فى الأراضى المجهولة .

هذا هو علم الطبوغرافيا العسكرية .. كما يفهمه عباد الله .. أما كما كنا نفهمه وقتذاك .. فهو شىء أبعد ما يكون عن هذا .. كان كل ما يعيه ذهننا عنه ينحصر فى أشياء ثلاثة : « غراب على شجرة » و « سكة حديد من تحت ترعة » و « تشوفها والا ماتشوفهاش ».

وربما تبدو تلك الأشياء عجيبة فى نظر القارىء .. وربما يهز رأسه فى دهشة ويتساءل عن صلة هذه التخاويف بعلم الطبوغرافيا.. وربما يظنها هلوسة من صنع أحلام الضحى التى كانت تتراءى لنا خلال حصص الطبوغرافيا ..

ولست أنكر أن أحلام الضحى كانت لا تنفك تراودنا .. وان المعركة بينها وبين شرح موافى كانت على أشدها .. وأننا كنا نترجح بين الطرفين .. تارة تغفو من اغرائها الناعم المعسول .. وتارة تفزع من صرخاته الحادة القاطعة .

ولكنى أعترف ان موافى كان أقدر المدرسين على الاحتفاظ بيقظتنا . وان أحلام الضحى كانت لا تكاد تقترب من أعيننا حتى تفر هاربة من صيحاته .. وعلى ذلك أستطيع أن أؤكد .. ان ما وعيناه عن الطبوغرافيا وقتذاك .. من « غراب على شجرة » الى « سكة حديد تحت ترعة » الى « تشوفها والا ماتشوفهاش » لم يكن من وحى أحلام الضحى .. بل كان من صميم الواقع .. أو من صميم .. الطبوغرافيا .

أما عن الغراب — النائم أو الواقف لست أدرى — على شجرة .. فهو يمثل الجزء من الطبوغرافيا الخاص بايجاد المحل على الخريطة .. (وهذه مسألة عرفتها بالطبع فيما بعد) .

كنت أجلس على المقعد وقتذاك محملقا فى وجه موافى ذى الشارب الدقيق الأنيق .. والوجه الجاف البارز عظام الوجنتين والفك العريض .. والألفاظ الحادة والجمل السريعة الحاسمة تتطاير من شفتيه .. فتطاير معها النوم الذى يغالبنا .. ويترك الذهن شاردا تائها سرحان يتنقل بين الخروج يوم الخميس بالبدلة الكحلى ذات الشريط الأحمر .. التى صرفت الينا وبدأ تقييفها . وبين سنجة المترو التى يبدو طرفها من خلال النافذة فيحمل الينا ذكرى الأحياء الطليقين المتنعمين بالسير فى الشوارع وركوب الأوتوبيس والمترو وأكل الطعمية علنا بلا تهرب ولا خوف ثم ينتقل الذهن فجأة الى دولاب الملابس حيث استقرت بعض القراقيش وقطعة من الشوكولاتة أخفيتها خلسة لكى آكلها قبل أن يضبطنى بها أحد . ثم أتصور الجزاء الذى يمكن أن يوقع على .. وهكذا يظل الذهن ينتقل شاردا .. وموافى منطلقا فى شرحه .. يحدثنا عن كيفية رصد غرض شهير بالبوصلة وحساب الزاوية الفلكية .. ثم ينتقل الى وصف الغرض الشهير . وتحديده بأنه شىء ثابت معروف . كبرج كنيسة أو مئذنة جامع أو تبة عالية أو شجرة كبيرة .. ثم يختم قوله محذرا « يعنى مثلا مترصدش غراب على شجرة » .

وهنا يفيق الذهن .. فلا يلتقط من طول الشرح والتفسير .. والأخذ والرد .. الا قوله الأخير « غراب على شجرة » فاذا حاول

اعادة الشرح .. عاود الذهن سرحانه فلا يفيق من شروده الا على الخاتمة .. ذات الغراب والشجرة .. ولا أخرج فى النهاية من درس الطبوغرافيا الطويل العريض .. الا بغراب على شجرة .

وهكذا كنت أعتبر مبادىء الطبوغرافيا تنحصر فى الغراب على الشجرة .. وكنت فى بعض الأحيان أسائل نفسى ما صلة الغراب بالشجرة بالطبوغرافيا .. وهل من الضرورى أن يكون الغراب واقفا على الشجرة .. واذا طار عن الشجرة .. هل ينهار علم الطبوغرافيا .

ولقد تجرأت ذات مرة وسألت جارى مستفسرا فى همس « ايه حكاية الغراب اللى على الشجرة » ورفع جارى كتفيه وقلب شفته السفلى علامة أنه لا يدرى .. واتضح لى بهذا أن معلوماتى فوق معلوماته وأنه فى سرحانه كان أبعد مدى لأنه لم يسمع حتى عن « غراب على شجرة » .

هذا هو ما كان من أمر الغراب والشجرة.. فى درس الطبوغرافيا أما ما كان من أمر السكة الحديد والترعة فقد كانت بدورها تعبر عن درس آخر .. وهو الاشارات الاصطلاحية .

كانت الاشارات الاصطلاحية .. هى اشارات اصطلح على أن ترسم فى الخرائط للدلالة على هيئات معينة كالسكك الحديد

والكبارى والجسور والمزلقانات و .. الخ .. وأغلب الظن أن موافى بدأ انهماكه فى شرح هذه الاشارات .. واستمر منهمكا فيها .. والذهن منهمكا فى سرحانه حتى وصل الى الكبارى .. واذا بى أفيق لأسمعه يقول مشيرا على التختة :

« يعنى مثلا اذا كان عندنا سكة حديد من تحت ترعة .. » .

وعلق ذهنى بهذه الجملة .. وهو لا يعلق .. أو لا يعلق به الا الأشياء التى لا يجب أن تعلق به ..

وبدأت أتصور السكة الحديد التى تسير من تحت الترعة .. ولست أدرى كيف قالها موافى .. أكان يقصدها حقا .. أم كانت زلة لسان .. أم كانت نكتة .

على أية حال .. لقد كان موافى يلقى النكت فى بعض الأحيان .. ولكنه كان يلقيها بطريقة جادة حاسمة قاطعة كما يلقى كل أحاديثه .. الى الحد الذى تمر بنا ونحن لا نكاد نميز أنها نكتة ونأخذها على أنها من أصول الطبوغرافيا .. ولا شك أنه لو كان يقصد بالسكة الحديد التى تمر من تحت الترعة — نكتة .. فنحن لم نأخذها أبدا على أنها نكتة الى درجة أن أحدنا جرؤ واعترض هامسا « مايمكنش » وبلغ الهمس سمع موافى فصاح « طيب بلاش سكة حديد .. خليها مترو » .

وقد يكون موافى مستمرا فى نكتته .. وقد يكون البعض حملها

فعلا محل النكتة .. ولكن .. عنى أنا .. الفازع من وجه مواق ومن شخطه .. لم أتصور أبدا أنه يمكن أن يخرج النكتة .. وعلى ذلك اعتبرت المسألة فى صميم علم الطبوغرافيا .. وكانت الفائدة الثانية التى استفدتها من الطبوغرافيا غير أن الغراب على شجرة ، هى أننا نستطيع بالطبوغرافيا أن نمرر السكة الحديد والمترو من أسفل الترع .. أما كيف .. ولم .. فهذا لم أحاول انسؤال عنه .

بقيت المسألة الثالثة .. وهى « تشوفها والا ماتشوفهاش ؟ » .. ولم أكن أعرف بالطبع من هى التى تشوفها .. ومن هى « اللى ماتشوفهاش » .. وتشوفها ليه .. وماتشوفهاش ليه .. واذا كانت تشوفها يجرى ايه ؟ واذا كانت ماتشوفهاش يجرى ايه ؟

كل هذا لم أكن أدرى عنه فى بادىء الأمر شيئا .. بل كان كل ما أدريه هو أن هناك سؤالا يتطاير فى حصة الطبوغرافيا .. تشوفها ؟.. والا ماتشوفهاش ؟ .. وكان على أن أجيب عليه أحيانا .. وكنت أجيب عنه فعلا .. وأرمى الاجابة كما يقولون ضربة لازب .. ياطابت يا اتنين عور .. مرة تشوفها .. ومرة ماتشوفهاش .. وأحيانا كانت الاجابة تصح .. وأحيانا أخرى كانت لا تصح .. وفى كلتا الحالتين لم أكن أدرى لم صحت ولم لم تصح .

ورويدا .. رويدا .. بدأت أعلم أن هناك شيئا اسمه الظهور المتبادل .. وان من أصول الحرب أن يعرف الانسان مواقعه التى

سيختارها على الخريطة .. ويعرف مدى الرؤية أمامها وهل ترى مواضع معينة أم تحجبها عنها تلال أو عوائق قائمة بينهما ..

كل هذا بالطبع لم أكن أعرف عنه شيئا .. ولكن بدأت أعرف فقط أن تشوفها وماتشوفهاش .. هى مسألة بين نقطتين .. بعد أن مر بى زمن وأنا أتخيل أنها بين امرأتين وأن احداهما لا تريد أن ترى الأخرى .. وان السؤال يطلب توضيح ما اذا كانت « تشوفها والا ماتشوفهاش » وكنت أسائل ما صلة هاتين المرأتين بالطبوغرافيا ولماذا نعيى أذهاننا بمعرفة ماذا كانت احداهما تشوف الأخرى والا ماتشوفهاش .. ولكنى لم أكن أملك الا أن أهز كتفى قائلا لنفسى : « يعنى هو الغراب اللى على الشجرة دخله ايه فى الطبوغرافيا .. أهى بجملة » .

وأذكر أن موافى أجرى لنا امتحانا قصيرا لاختبارنا وقتذاك وبعد أن كتب الأسئلة على التختة أخذت فى قراءتها .. السؤال بعد السؤال وأنا لا أكاد أفهم شيئا مما أقرأ ، حتى وصلت للسؤال الأخير فاذا به مسألة عن الظهور المتبادل . وفى نهايتها « تشوفها والا ماتشوفهاش » وكانت تلك هى الجملة الوحيدة التى فهمتها من التختة ومضت برهة وأنا لا أعرف بماذا أجيب . وأخيرا همست لجارى :

« تشوفها والا ماتشوفهاش » ؟

والتفت الى جارى فى دهشة وتساءل بدوره « ايه ؟ » .

ورحت أكرر سؤالى :

« تشوفها والا ماتشوفهاش » ؟

« ايه اللى تشوفها والا ماتشوفهاش » ؟

« السؤال الأخير ؟؟ ! » .

ووجدته يرفع كتفيه ويبرز شفتيه علامة الدهشة والاستنكار وهمس فى تبرم :

« ايه هو ده ؟ .. الجدع ده بقاله جمعتين داويشنا بتشوفها والا مبتشوفهاش .. احنا مالنا .. عنها ماشافتها » .

واتضح لى من تبرمه .. ان معلوماته عن المسألة لم تتجاوز بعد معلوماتى عندما كنت أظن المسألة محصورة بين امرأتين .

تلك هى الأركان الرئيسية الثلاثة التى كان يقوم عليها علم الطبوغرافيا .. أما الركن الرابع .. فقد كان .. « البلانشيطة » .

والبلانشيطة .. هى لوحة تستند الى حامل من ثلاثة قوائم أشبه بحامل آلة التصوير .. تستعمل فى مسح الأراضى ..

وفى أول خروج لنا بالبلانشيطة .. وقفنا نشد الحامل واللوحة الى العجلة .. وقد ارتدينا البدلة الكاكى ذات الأسبليط الأحمر والبنطلون القصير والقالشين .. ووضعنا فوق الطربوش مظلة

كاكى أشبه بمظلات الكناسين قد حجب رفرفها الأمامى أعيننا وتهدل رفرفها الخلفى العريض على أقفيتنا وظهورنا .

واصطففنا فى ميدان الطابور استعدادا للطابور .. وكنت آكاد أسمع دقات قلبى .. فقد كانت المسألة بالنسبة لى مغامرة كبرى ..

حقيقة أنى تعلمت ركوب العجل .. ولكنه ركوب خفيف .. ألف خلاله فى الفناء بالعجلة مجردة وأنا وحدى .. أما أن أخرج هكذا فى طابور والعجلة محملة بالبلانشيطة وأنا محمل بالمظلة وشنطة الجراية فكان أمرا يستدعى الجزع .

وركبنا .. ووجدت من الخير أن أتسلل الى ذيل الطابور حتى لا أعرقل نظامه .. وبدأت أحرك البدال .. وسارت بى العجلة .. وأنا أحافظ على توازنى ومن أسفلى الحامل والبلانشيطة .

وفى هذه الزحمة الكبرى التى أنا فيها .. وأنا أعبر مع الطابور شارع ابن سندر .. سمعت عبد العزيز يهتف بى « شايفه البنت دى » .

وكنت أكاد أسير .. وكان آخر ما يخطر لى ببال .. هو البصبصة .. لأنى كنت أعتقد أن أى تحول ببصرى عما أمامى .. سيلقى بى الى التهلكة .. ولم أملك اجابة على قول صاحبى الا قول أخينا الضرير للعسكرى الانجليزى .

واستمررنا فى السير .. حتى وصلنا الى المنطقة المجاورة لسراى القبة . فحططنا رحالنا .. وبدأ موافى يلقى تعليماته الينا محددا المنطقة المطلوب رسمها . وبعد أن تلقينا التعليمات . تفرقنا فى المنطقة .

وكان ضمن المطلوب رسمه السور الخلفي للسراى المطل على المزارع والحقول .. وكانت المنطقة متسعة سرعان ما ذابت فيها جموعنا . حتى لم أعد أبصر من حولى الا نفرا أو نفرين .. وكان أبدع ما فى الأمر أن موافى نفسه لم يبد له أثر .

وتلفت عن يمينى فوجدت السور المطلوب رسمه وتلفت عن يسارى فوجدت غيط خيار وقناة عريضة تلمع فيها المياه . وقد جلس على حافتها أحد الفلاحين يصطاد السمك .

وأنا أحب الخيار .. أحبه بلا جدال .. أكثر من موافى ومن الطبوغرافيا ومن سور السراى وتلفت حولى مرة أخرى فوجدت المسألة صفصفت على أنا وحسن فريد ..

وهتفت به صائحا :

— ايه يا بو على .. مانفسكش تاكل خيار ؟

— أى والله ..

— طيب ياللا بينا ننزل على الغيط ..

— طب وصاحبك ؟ .. (يقصد موافى) .

— ماتخافش .. مش باين له أثر ..

— وصاحب الغيط ؟

— يا أخى تديله قرش ..

وفى لمح البصر كانت البلانشيطات متكئة بجوار السور وكنا نحن نخوض الغيط باحثين عن الخيار .. ولقينا صاحب الغيط فرحب بنا . وحييناه فرد التحية بأحسن منها . قلنا له :

— عايزين ناكل خيار يا حاج .

— كلم زى ماتتو عايزين .. بس ماتخدوش معاكم .

وانطلقنا فى الغيط .. وليس ألذ من الخيار فى غيطه لا سيما اذا كان مجانا .. وأؤكد أننا أكلنا من الخيار مالم يخطر على بال الرجل أن آدميين يمكن أن يأكلا مثله .. وأؤكد كذلك أنه ندم أشد الندم على تصريحه لنا .

وكان يجب وقد امتلأنا وشبعنا أن نعود الى السور والى البلانشيطة .. وقد هممنا فعلا بالعودة عندما لمح حسن فريد الرجل صاحب السـنارة الذى جلس يصطاد على حافة الترعة وسمعته يهتف بى :

— اسمع .. الظاهر ان الترعة مليانة سمك .. ما تيجى نصطاد شوية ..

— نصطاد بايه .. ؟

— نصطاد بأدينا .. دى الترعة مش غويطة ..

— يالله يا جدع بلاش عبط .. فيه حد يصطاد سمك بايديه .. يالله لحسن عمك موافى يطب علينا .

ولكن حسن اتجه الى الترعة .. وهممت أنا بالعودة عندما طاف الشيطان بذهنى فهيأ لى أن الترعة فعلا مليئة بالسمك .. وأن صاحبى سيفوز وحده بالغنيمة .. فوجدت من الخير أن أتبعه حتى لا أترك الفرصة تضيع . وقلت لنفسى بضع دقائق لن تؤخرنا كثيرا .

ووقف صاحبى على حافة الترعة وكانت تبدو على سطحها فقاقيع ودوامات صغيرة .. وكان كلما أبصر أحدها صاح فى نشوة :

— أهى دى سمكة .

وأخيرا لم يستطع الصبر ووجدته انثنى بجسده لأسفل مادا يده بشنطة الجراية بعـــد أن أفرغها مما بها محاولا أن يرفع بها بعض السمك كأنها شبكة . وازداد تحمسه وهو يجد الفقاقيع تتكاثر ويلمح فعلا احدى السمكات تبدو من خلال الماء . وازداد ميلا .. حتى .. سقط فى الترعة ..

ولم تكن المأساة .. كامنة فى خطورة السقطة .. لأن قاع الترعة كان قريبا .. ولكن كانت فى كيفية خروجه منها . وفى كيفية تنشيف ملابسه وتنظيفها . ومددت له يدى اليمنى محاولا جذبه ولكنى وجدت نفسى أنزلق معه .. ووجدنا أنفسنا نحن الاثنين وقد غرقنا فى الوحل والطين حتى ما فوق الركبة .

وأخيرا استطعنا الخروج من الترعة وكان علينا أن نقضى بقية الوقت المخصص للرسم . فى تنظيف القلشين وتجفيفه .

وانتهى الطابور وتجمعنا . دون أن نخط فى لوحة الرسم خطا واحدا .

وعدنا الى الكلية . وكان علينا أن نسلم اللوحات عقب تنظيفها وكتابة البيانات ورسم المقياس عليها .

وجلست فى الفصل فى حصة المذاكرة وأنا أبصر الجميع قد انهمكوا فى اوحاتهم وأنا وصاحبى نتبادل النظر فى يأس شديد .. ماذا يمكن أن نقول عندما نسلم اللوحات بيضاء من غير سوء ! .. ان المسألة قد تنتهى على الأقل بشنقنا .

وفجأة خطر لى خاطر عجيب .. هتفت على أثره لصاحبى :

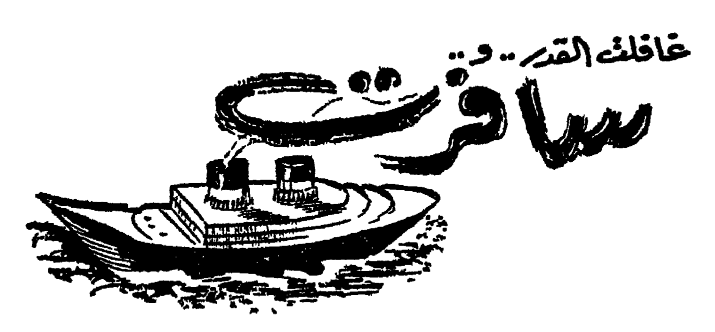
— اسمع .. تعرف تجيب لنا دفتر التليفون ..

ودهش صاحبى .. ولكنه تسلل من الفصل وعاد بعد لحظة



ومعه دفتر التليفون .. وقلبت صفحاته .. وكانت توضع فى نهاية الدفتر وقتذاك خرائط لكل أحياء القاهرة .. وفى سرعة البرق نزعت الصفحة التى بها منطقة سراى القبة ولم تنته الحصة حتى كنت وصاحبى قد نقلناها على لوحاتنا بالمقياس المطلوب .

وأعاد صاحبى الدفتر وكانت المرة الأولى .. والأخيرة .. التى أحس فيها بامتنان وتقدير لمصلحة التليفونات .



كنت أستعد للسفر الى فيينا .

كنت أستعد وأنا واثق أنى لن أسافر .. لأن كل محاولاتى فى السفر الى الخارج باءت بالفشل ، ولم يكن هناك ما يدعونى قط للاعتقاد بأن سوء الحظ الذى لازمنى فى كل محاولة سيتخلى عنى فى هذه المحاولة ..

سنحت لى الفرصة الأولى للسفر وأنا طالب أوشك على التخرج من الكلية الحربية ، وكنت الرابع فى الأقدمية بين طلبة القسم النهائى .. وكانت الدفعة وقتذاك لا تتجاوز العشرين وغالبا ما يحتفظ كل منهم بأقدميته التى حصل عليها فى أول امتحان فى القسم الاعدادى لأن الأقدمية تحسب عند التخرج بضم المجاميع الثلاث التى يحصل عليها الطالب فى السنوات الثلاث .

وكان الأربعة الأوائل يرسلون الى بعثة فى وولتش بانجلترا

لدراسة المدفعية .. وكان المفروض اذا حافظت على أقدميتى أن أكون ضمن المبعوثين الأربعة .. وكنت أعلق على السفر آمالا كبـــارا .. وأعتبر أن مستقبلى .. ومستقبل المدفعية فى مصر .. سيضيعان .. اذا ضاعت منى هذه البعثة .

وبدأ سوء الحظ يطل بأنفه عندما أعلن فى المدرسة انضمام القسم المتوسط الى القسم النهائى ودخولهم جميعا امتحانا واحدا تحسب على أساسه أقدمية التخرج بصرف النظر عن الامتحانات السابقة .

وأحسست أنى أوشك أن أخـــوض معركة مذاكرة .. وأنا لم أحصل على أقدميتى السابقة الا بامتحان مفاجىء .. لم يكن أمام أحد منا فرصة المذاكرة .. فأنا مستذكر فاشل .. شـــديد السرحان أمام صفحات الكتب المدرسية .. حتى لأذكر أنى توقفت أمام احدى صفحات كتب التاريخ الطبيعى وأنا فى الثانية الثانوية .. ثلاثة أشهر .. وأنا لا أتجاوزها حتى بليت الصفحة ..

وأذكر أيضا وأنا فى كلية أركان حرب .. عمارة كانت تبنى أمامنا .. وكانت تلوح لى من بعد خلال النافذة المواجهة لمقعدى .. وكنت لا أملك نفسى من السرحان فى مراقبة بناء العمارة .. وأخذت العمارة ترتفع دورا بعد دور .. حتى تم بناؤها .. ووجدت جارى

وهو اليوزباشى المهندس حمدى المغربى يضرب كفا بكف ويقول لى فى أسف :

— يا خسارة العمارة خلصت .. حتسرح فى ايه بقية السنة ؟

وبمثل هذا السرحان أمام صفحات الدراسة .. كان على أن أخوض معركة مذاكرة .. خرجت منها .. وقد طارت الأقدمية .. وطارت معها البعثة .

ولم يضع مستقبلى بالطبع .. ولا ضاع مستقبل المدفعية فى مصر ..

وسنحت الفرصة الثانية بعد سنتين فى أول عام ١٩٣٩ قبل بدء الحرب الأخيرة . عندما تقرر ارســال أول مجموعة من ضباط المدرعات لانجلترا لدراسة المدفعية والصيانة واللاسلكى ورشحت مع البارودى لبعثة الصيانة . ومرة أخــرى بدأت أعلق الآمال الكبار .. وبدا لى مستقبلى .. ومستقبل صيانة المدرعات فى مصر معلقا على ذهابى فى هذه البعثة .

وقبل أن يتقرر موعد السفر قلب البارودى احدى العربات فى طابور السواقة وجوزى باحالته الى الاستيداع لمدة ستة أشهر .

ورشح آحمد رياض قائد الآلاى وقنذاك حسين الشافعى للسفر بدل البارودى . وأخذت وحسين نعد العدة للسفر ونتأهب له

ونرسم فى أذهاننا الخطوط الذهبية لمستقبل باهر سعيد .. لنفسيتنا ولمدرعات مصر .

وتأجلت البعثة بضعة أشهر .. ولم يكن علينا من ضير فى الانتظار ما دام حلمنا الأكبر . سيتحقق فى نهايتها .. ولكن أشهر الانتظار طالت .. حتى تجاوزت الأشهر التى أحيل خلالها البارودى الى الاستيداع فعاد الى الخدمة .. واتخذ مكانه ثانيا فى البعثة .. وتبددت أحلام حسين هذه المرة .. وطارت منه البعثة .. أو باتت كما يقولون فرحة ما تمت .. أخذها البارودى وطار .

وتحدد يوم السفر وبات أمره أكيدا لا ريب فيه . وأضحت أحلامى فيه حقيقة ملموسة واقعة .. وبدأنا نعد أوراقنا .. ولم يعد علينا الا أن تتقدم لوزير الحربية ليرانا مع بقية المبعوثين الى انجلترا.

وفى صباح يوم مفترج .. ارتديت ملابس مقابلة الحكام .. الحذاء الطويل وبنطلون الركوب وتمنطقت بالسيف مشدودا بمقبضه الكروى اللامع الى وسطى ... مدلى بحده الطويل الى جانبى .. وسرت والبارودى الى وزارة الحربية .. وكأننا سنفتح عكا .

وفى مبنى وزارة الحربية وقفنا مشدودين بسيوفنا مع بقية الزملاء المبعوثين حتى أقبل علينا رئيس هيئة أركان الحرب الفريق محمود شكرى بقامته الرفيعة وجسده الطويل وصوته الهادىء وملامحه الطيبة وتمم علينا ليدخلنا الى الوزير .

وفى تلك اللحظة .. وقبل أن ندخل مكتب الوزير .. أقبل علينا حسين لاهثا وقد ارتدى بدلة الركوب وتمنطق بالسيف وسألناه فى دهشة :

— ايه اللى جابك ؟

— أنا عارف !! .. قالولى الحق حالا قدم نفسك للوزيرمع المسافرين .

وشددت على يده افى نشوة وسرنى أن نسافر ثلاثتنا وألا يخذل الله أحدا منا أو يضيع أمانيه .

وتقدم بنا الرجل الطويل الرفيع الى مكتب الوزير ..

وكانت المرة الأولى التى أدخل فيها مكتب وزير .. بل لعلها المرة الأولى التى أرى فيها وزيرا .. بمهابته وفخامته .

ولاح لنا حسين سرى .. فى أقصى الحجرة .. وراء مكتبه الفاخر وقد اتكأ بكرسيه الى الوراء وأخذ يتفرس فينا بنظرات عدائية متعالية .. حتى أدخل فى روعى .. أنى مذنب فى قفص الاتهام ولست مبعوثا فى مكتب وزير .

وبدأ الوزير حديثه .. بلا ترحيب ولا سلام .. بل بأسئلة عدائية مهاجمة .. كأن بيننا وبينه عداء قديما ..

وصاح بأولنا وكان البارودى :

— انت رحت الاستيداع ليه ؟

— لأنى قلبت عربية .

وفى صرخة ناهرة صاح فيه :

— قول بالانجليزى .

وقالها البارودى بالانجليزى .. بطريقة جعلت الوزير يقلب شفتيه .. بقرف وامتعاض .

وانتقل الى ..

وأحسست بالرهبة تزداد بى .. واللخمة تطبق على أنفاسى .. وتملكنى احساس الجالس أمام لجنة امتحان شفوى انجليزى .. يرأسها .. وزير .. أو بتعبير أصح .. يقود هجومها .. وزير .

وسألنى الوزير فى لهجته العدائية الخاطفة :

— متى تخرجت ؟

والاجابة بسيطة .. فانى قد تخرجت سنة ١٩٣٧ .. والمسألة لا تحتاج الى ذاكرة أو مشقة .. بل كان يمكننى أن أقول أى كلام بلا تدقيق فلا أظن الرجل كان يعرف تاريخ تخرجى ولا أظنه كان سيجرى تحقيقا فى صحة الكلام .

ومع ذلك وجدت الذاكرة تبحث عن الرقم .. والرقم يفلت منها .. بلا أى مبرر وعندما أمسكت به .. وبدأت تترجمه الى

الانجليزية .. كان الرجل قد مل من طول صمتى .. وانتقل بهجومه الخاطف الى حسين .

وخرجنا من مكتبه .. ليسافر البارودى وحسين .. وأبقى أنا ..

وطارت البعثة للمرة الثانية .

أما الثالثة فسنحت لى فى أبريل سنة ١٩٥٤ فى نفس الوقت الذى كنت أعد فيه مجلة الرسالة الجديدة للظهور .. وكان السفر مستحيلا .. واعتذرت .

أما الرابعة .. فكانت بعثة ضباط الأركان حرب الى ايطاليا وكنت أعتقد أن الدور قد حل علىّ للسفر .. ولكن قيل لى .. لقد أضعته باعتذارك ..

ولم أتضايق كثيرا .. وقلت لنفسى « بجملة » .. وأنا بطبعى لا أحزن كثيرا على الفرص الضائعة .. ولا سيما التى لم يكن لى فضل فى اضاعتها .. وأحاول أن أفهم نفسى أن الله يحبنى .. وأنه يدبر لى الأفضل .. وأن أقنعها بأن ما فى يدى خير مما ضاع منى ..

وسنحت الفرصة الخامسة .. دعوة لمؤتمر نادى القلم فى فيينا .. ولم أرفضها .. ولم أتحمس لها .. بل قبلتها على أنها شيء ضائع .. وفضلت أن أمنح الأقدار متعة اضاعتها كما أضاعت بقية الفرص .

وبدأت أستعد للسفر .. وأتصرف باستعباط .. كأنى مسافر حقا .. وأنا فى قرارة نفسى واثق أنى لن أسافر .

وقبيل السفر .. التهبت احدى عيني .. واعتبرت المسألة انذارا بمعاكسات القدر .. وتذكرت هذه الهبة من وجع العين التي يرسلها القدر الى كل عيد فى طفولتى على سبيل الهدية لكى يحرمنى من التمتع بالعيد على الوجه الأكمل ..

وتجاهلت الانذار .. واستمررت فى اجراءات السفر .. استخرجت جواز السفر وأخذت التأشيرات وحجزت على الباخرة .. وفعلت كل ما يفعله أى مسافر .. ليس بينه وبين القدر خصومة .

ولم يعد على السفر سوى يومين .. ووجدت أن المسألة قد أضحت جدا .. ومع ذلك لم أكن أصدق أنى سأسافر فعلا .. وكنت أتوقع بين الحين والآخر عملا مفاجئا من القدر لمنعه .

وفعلا تحقق ظنى .. وأقدم القدر فى اللحظة الأخيرة على العمل البهلوانى المفاجىء .

كان القائد العام للقوات المسلحة يمر على المدرعات الجديدة فى الفرسان .. ومررت معه .. وطال بنا المرور فى الهجير قرابة ساعتين وبعد انتهاء المرور دعوته لشراب شعير مثلج كنت قد أعددته فى مكتبى فاعتذر بأنه على موعد ..

وكرهت أن يضيع الشعير المثلج سدى فأصررت على دعوة بقية الضباط لاحتسائه .. وعدت الى مكتبى ومعى عبد العزيز مصطفى مدير الفرسان وحافظ اسماعيل مدير مكتب القائد العام .

وبدأنا نعب الشعير .. وقد جفت حلوقنا .. وتصبب عرقنا .. ثم جلسنا نتحدث فى راحة واسترخاء .. وبعد بضع دقائق أحسست بالتواء فى معدتى .. وبدأ الألم يزداد شيئا فشيئا .. وحاولت أن أخفيه حتى ينصرف ضيوفى .. ولكنهم لاحظوا شحوبا مخيفا فى وجهى .. لم أستطع بعده اخفاء ألمى .

ورقدت فى مكتبى .. وبعد بضع لحظات .. أتى طبيب ودفع فى ذراعى بحقنة مسكنة لم تجد نفعا .

كان بجوفى ألم قاتل .. انتهى بى الى شبه اغماء .. حملونى بعده الى مستشفى مظهر عاشور .. لاجراء عملية .. أى عملية .. تنقذنى مما أنا فيه .

وفى وسط هذه الآلام المخيفة نظرت الى سقف الحجرة وبدا لى أن القدر يبتسم فى خبث .. وهززت رأسى وهمست به فى استعطاف « خلاص مش مسافر .. بس سيبنى » ولم يعد لى أى أمل فى السفر كنت واثقا أن عملية أعور ستجرى لى .. وأن على أن أرضخ لمشيئة القدر .

وبعد برهة أقبل الدكتور مظهر .. وأخذ يفحصنى .. وعندما انتهى من فحصى .. أمر باستبقائى فى المستشفى .

وغادرنى الدكتور على أن يعاود فحصى مرة أخرى بعد بضع

ساعات عنـــدما يزول أثر الحقنة التى أعطاها لى الطبيب الأول وبدأ الألم يخف رويدا رويدا .. وبدأ الأمل فى السفر يعاودنى .. وخيل الى أنى أستطيع أن أغافل القدر المطمئن الى رقدتى .

وكان الزوار يحيطون بى وهم ينظرون الى فى جزع واشفاق ..

وفجأة نهضت من فراشى وارتديت ملابسى .. ونظرت الى الزوار معتذرا وانطلقت هاربا من المستشفى .. والممرضات يعدون فى أثرى .

وفى اليوم التالى كنت أجلس فى الباخرة .. أتنفس الصعداء وهى تتباعد عن الميناء .. ونسيم البحر يلفح وجهى وخيل الى أن هناك وجها يعدو فى الميناء للحاق بالباخرة .. وأنه يصيح بمن حوله :

« انه مريض أعيدوه الى فراشه .. لقد غافلنى وهرب » ..

ولم أدر أكان الوجه .. وجه الطبيب .. أم وجه القدر .. أم وجه زوجتى التى لم تعرف بمرضى الا بعد أن سافرت .





فى حياتى العامة أعمال كثيرة لا أتقنها .. ولا أحب أن أعرض نفسى لأدائها .

من بين هذه الأعمال .. ان لم يكن أولها .. عمليات الشراء ! فأنا أمثل دائما — أو هكذا يزعم أهلى — دور المغلوب فى عملية .. أو معركة الشراء .. ففى كل صفقة أخوض غمارها .. لابد أن أكون خاسرا .. ولابد أن يكون البائع فى نظرهم قد ضحك على ...

وفى قرارة نفسى .. لم أحس قط بندم على صفقة خاسرة عقدتها .. فأنا أقنع نفسى بأن خسارتى فى الصفقة تمثل بلا شك ربحا للطرف الآخر .

وهو غالبا مايكون من صغار الباعة الذى لا أرى ربحه منى ربحا فى غير موضعه .. بل هو حسنة مستحقة بطريق لا اذلال فيه